أحاديث من القلب

م: فخرى كرم

فهرس الموضوعات



ما أطيب الرب !!

"ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب، طوبى للرجل المتوكل عليه" (مز ٣٤: ٨)

أول هجوم لإبليس على الإنسان تمثل في محاولته الخبيثة لإفساد ثقة حواء في صلاح الله ومحبته، وللأسف فقد نجح في هذا تماماً!! ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن امتلك الإنسان انطباعاً مزيفاً عن طبيعة الله، وهذا الانطباع المزيف حطم كل صلاح في حياة الإنسان وقاده إلى الخطية والدمار.

لاشيء يزعج ويشوّه النفس أكثر من انطباع خاطيء عن الله. لقد اعتقد الفريسيون بأن الله قاسٍ وعنيف ولذلك خلت حياتهم من الرحمة وإن امتلأت بالذبائح (مت ٩: ١٣) لقد احتفظوا من الخارج بمستوى عالٍ من الأخلاقيات إلا أنهم من الداخل كانوا «قبوراً» كما قال لهم الرب، تصورهم الخاطيء عن الله قادهم إلى أسلوب أجوف للعبادة يختلف ظاهره عن باطنه، كانت العبادة بالنسبة للفريسي نيراً ثقيلاً لا يحبه وإن كان لا يستطيع الهرب منه، كان الله بالنسبة للفريسي إلهاً جافاً ولذلك صارت عبادته روتينية وخالية من المحبة، وهذا أمر طبيعي **لأن انطباعنا عن الله هو الذى يُحدد شكل ومضمون عبادتنا له.**

حياة مسيحية كئيبة

والمسيحية أيضاً مرت بأوقات كانت فيها ديانة قاسية وجافة!! والسبب هو نفسه: نظرة خاطئة لله، **والإنسان يحاول غريزياً أن يكون مثل إلهه، فلو كنا نتخيله قاسياً وعنيفاً فهكذا سنكون نحن أيضاً!!** وبسبب الفشل في فهم الله فهماً صحيحاً أصبح هناك قدر ضخم من الكآبة في قلوب مؤمنى أيامنا هذه، وحياتهم المسيحية تبدو تعيسة معتلة متألمة تمضى بتثاقل تحت إشراف آب قاسٍ يطلب منهم الكثير ولا يتسامح في شيء، أنانى ومعتد بذاته وذى مزاج حاد من الصعب إرضاؤه!! وعبادتهم تتميز بالرتابة والملل والتكرار، صلواتهم روتينية وتسبيحهم ميكانيكى!! ولا عجب، فنوعية الحياة التى تنشأ **من مثل هذه النظرة المشوّهة لله لابد أن تكون تقليداً مشوهاً للحياة المسيحية الحقيقية.**

بل للأسف هناك الكثير من الخدام لا يستطيعون التحرر من تصورهم الخاطيء عن الله، وهذه التصورات تسمم حياتهم وتدمر حريتهم الداخلية، هؤلاء الأعزاء يخدمون الله بتجهُّم كما كان الابن الأكبر يفعل، يخدمون باجتهاد لكن بدون فرح وبدون حماس، ولذلك تجدهم غير قادرين على تفهم الفرح والابتهاج بعودة الأخ الضال!! فكرتهم عن الله تجعلهم يستبعدون أنه يفرح ويبتهج في وسط شعبه، لذلك تراهم يعتبرون مظاهر الفرح والتهليل سفهاً وابتذالاً!! إنهم نفوس غير سعيدة مُقدَّر لها أن تسير بتثاقل في طريق كئيب يفعلون فيه الصواب فقط لكى يكونوا في الجانب الرابح في يوم الدينونة!!

من الأساسى جداً لصحتنا الروحية أن نحتفظ في أذهاننا دائماً بتصور صحيح عن الله، فلو فكرنا فيه كشخص بارد وجاف بلا مشاعر فسيكون من الصعب أن نحبه، وستمتلىء حياتنا بخوف العبيد، أما إذا آمنا بأنه طيب وصالح فستنعكس هذه الحقيقة على حياتنا كلها.

طيب هو الرب

الحق هو أن الله طيب، بل هو الأكثر سحراً وجمالاً في وسط كل خليقته!! وخدمته ممتعة لدرجة لا يُعبّر عنها، إنه كلى المحبة وهؤلاء الذين يتعاملون معه يدركون يوماً بعد الآخر أعماق هذه المحبة، وهو كلى العدل ولا يتغاضى أبداً عن أية خطية، ولكنه من خلال دم العهد الأبدى يتعامل معنا كما لو لم نخطىء أبداً!! في تعامله مع أبنائه رحمته دائماً تغطى عدله!!

والشركة مع الله مبهجة إلى درجة تفوق التعبير، إنه يدخل مع أبنائه في شركة بسيطة وسهلة وغير روتينية، **شركة مريحة وشافية للنفس،** إنه ليس حاد المزاج أو أنانياً أو قاسياً بل طيب هو للذين يترجونه للنفس التى تطلبه (مرا ٣: ٢٥). **ما هو عليه اليوم** ستجده غداً وبعد غد وإلى الأبد، ليس من الصعب إرضاؤه **لأنه لا يطلب منا إلا ما سبق وأعطاه لنا!!** إنه سريع في ملاحظة أقل مجهود نقدمه لأجل رضاه، وبنفس السرعة يغض الطرف عن أى قصور عندما يرى أننا نحاول إتمام مشيئته، إنه يحبنا لأنفسنا، ومحبتنا له أثمن في عينيه من كل العالم.

ستختلف حياتنا تماماً إذا استطعنا أن نذوق وننظر ما أطيب الرب!! حتى عندما يؤدبنا فهو يفعل هذا بقلب الآب الذى يريد أن يرى ابنه ينمو يوماً فيوماً ويزداد شبهاً بأبيه، إنه يعرف جبلتنا ويذكر أننا تراب نحن لذلك لا يمكن أن يكون تأديبه لنا أكبر من احتمالنا.

لسنا في حاجة إلى أن نخاف من الله لأنه كلى الصلاح من نحونا، وهو لا يريدنا أن نجعل أنفسنا صالحين بل أن نأتى بكل عدم صلاحنا ونستودع أنفسنا بين يديه، ونؤمن أنه يتفهم كل شيء ويحبنا رغم كل شيء.

ليست كلمة .. بل حالة قلب!!

واحدة من أصعب العبارات التى نطق بها الرب يسوع له المجد هى: «وأما أنا فأقول لكم إن كل مَنْ يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم، ومَنْ قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع، ومَنْ قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم!!» (مت ٥:٢٢).

والحقيقة هى أن ما يقصده ربنا هنا ليس أن الإنسان قد يذهب إلى جهنم لمجرد أنه قال لأخيه كلمة واحدة، بل ما يقصده هو أن تلك الكلمة الواحدة تعبِّر عن حالة رديئة للقلب، لأن من فضلة القلب يتكلم اللسان، وهذه الحالة الرديئة للقلب هى التى ستؤدى بصاحبها إلى جهنم وليست الكلمة التى نطق بها اللسان.

إن الخطأ البسيط نسبياً عندما تقول لأخيك «يا أحمق» يعبِّر عن خطية كبيرة كامنة في القلب ألا وهى خطية احتقار الآخرين والاستهانة بهم، وهذه الخطية يمكن أن تقود الإنسان إلى الهلاك، إن الخطر لا يكمن فيما ننطق به من كلمات بل فيما نضمر من مواقف في قلوبنا.

خطية الاستهانة

كلمة «رقا» تعني «يا تافه» وهى تفيد الاستهانة والتقليل من شأن الآخر، والاستهانة بالكيان الإنسانى لأى شخص هى خطية وإهانة لله لا تقل عن خطية عبادة الأوثان!! لأنه إذا كانت عبادة الأوثان هى إهانة لذات الله ووحدانيته فالاستهانة بالآخرين هى إهانة لصورة الله ومثاله!! فالكيان الإنسانى مخلوق على صورة الله ومثاله ومَنْ يحتقره أو يستهين به يُخطىء ضد الله ذاته!!

الشخص الذى يستهين بأخيه ويقول له «رقا» يحمل في داخله موقفاً قلبياً لسان حاله «هذا الإنسان تافه ولا قيمة له، أنا لا أعتدُّ به ولا أعمل له أى حساب على الاطلاق»!! وهذا التقييم الردىء للطبيعة الإنسانية المخلوقة على صورة الله يُعتبر خطية ضد الله نفسه، وإذا تمكنت منا هذه الخطية فلابد أن تؤدى بنا إلى الهلاك.

سبب الاحتقار .. الكبرياء!!

لا يمكن لمشاعر الاحتقار أن توجد إلا في القلب المتكبِّر، مشاعر الاستهانة والتقليل من شأن الآخرين تنبع دائماً من مشاعر الكبرياء والتعظيم من شأن أنفسنا، المستهين بالآخرين يظن نفسه عالياً جداً وهذا الظن مستند على أسباب وهمية لا وجود لها، تقييمه العالى لنفسه غير مؤسس على حقيقة كونه مخلوقاً على صورة الله ومثاله بل مؤسس على معتقدات خاطئة عن نفسه وفضائل خيالية لا يمتلكها، لقد أخطأ أولاً في تقييمه لنفسه وبالتالى أخطأ فى تقييمه لأخيه الإنسان، والخطأ هنا قلبى قاتل وليس مجرد خطأ لفظياً عابراً.

... وفي المجال الكنسى!!

في الأوساط الدينية تجد الاستهانة أفضل تربة لها حيث تنمو وتزدهر بأفضل الثمار!! إنك تراها في نظرة الازدراء الباردة التى تنظر بها سيدة الكنيسة المحترمة إلى الأخت التى تلبس ملابس مبهرجة وتضع المكياج الصارخ، الشماس والخادم الممتاز يجد صعوبة في إخفاء استهانته بالجهال وأنصاف المتعلمين، الخادم المتعمق في دراسة الكتاب يوبخ الشعب بأسلوب قاس لا يدع مجالاً للشك في أنه يشعر بأنه أفضل منهم جميعاً!! التدين غير المصحوب بالتوبة والتواضع والمحبة لابد أن يقود صاحبه إلى الاستهانة بغير المتدينين والساقطين أخلاقياً، وهذه الاستهانة هى حكم باطل ضد أخ لنا في الإنسانية، وهذا الحكم الباطل يضعنا تحت غضب الله ويقترب بنا من نار جهنم!!

مسئولية التمييز

من الناحية الأخرى نقول إن المؤمن المسيحى لا يمكن أن يغمض عينيه عن الصواب والخطأ في حياة إخوته، ولا يمكنه تفادى الحكم على أعمال وسلوكيات الآخرين، بل إن الرب ينتظر منه أن يفعل هذا: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم» (مت ٧:١٥، ١٦) والرسول بولس يطلب من تلميذه تيموثاوس أن يميز أناساً لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها ويطلب منه أن يعرض عن هؤلاء (٢تى ٣:٥).

لكن تمييزنا لسلوكيات الإنسان الشريرة واستنكارنا لها لا يجب أن يؤدى إلى احتقارنا للإنسان نفسه، ينبغى أن نحترم إنسانية كل إنسان مهما كانت أعماله، وهذا الاحترام نابعاً من إدراكنا للمصدر الإلهى لهذه الطبيعة الإنسانية في أصلها.

لا يوجد إنسان مات المسيح من أجله يمكن أن يكون تافهاً أو بلا قيمة، الإنسانية ذاتها ينبغى أن تُحترم لأنها الثوب الذى اتخذه ابن الله عندما تجسد، إذا استهنت بانسانية أى شخص فأنت تُخطىء ضد ابن الانسان نفسه!! ينبغى أن نُبغض الخطية في أنفسنا وفي الآخرين لكننا ينبغى ألا نُبغض أو نحتقر الإنسان نفسه.

- ٣ - في ملء الزمان

«ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه» (غل ٤ : ٤)

مرُت السنون الطويلة والأجيال المتعاقبة في انتظار مجيء المخلّص حتى ظن الكثيرون إن الزمان بلا حساب ومرور الأيام بلا مقدار، وجُرِّب الأتقياء بالشك في جدوى الانتظار وفائدة الترقب، وهاجمتهم بشدة فكرة «عشوائية الأحداث» التى إذا تمكّنت من الإنسان أفقدته إيمانه وسلبته عزيمته وأرخت يديه، وكانت النتيجة أن غالبية الشعب أفلتت الإيمان من يديها واستسلمت للموت السائد واليأس الطاغي، حتى عندما جاء يوحنا المعمدان وجد نفسه مثل صوت صارخ في برية، إشارة إلى إحساسه بالخواء والوحشة والموت، عدد قليل يُعدُّ على الأصابع هم الذين ظلوا على انتظارهم للمخلّص، وتمسّكوا بإيمانهم بأن الله يبالى بمرور الأيام، وأن زمان الانتظار له «ملء» أو كمال، وأن ساعة الافتقاد لا يمكن أن تتأخر أبداً، هؤلاء فقط كان لهم شرف استقبال خلاص الله عندما جاء ملء الزمان (لو ٢ : ٢٥، ٣٦).

لكل شيء زمان

الكتاب يعلّمنا أن لكل شيء زمان ولكل أمر تحت السموات وقت (جا ٣ : ١) الله يتحكم في الزمان ومرور الأيام وله مقاصد صالحة وسامية تتحقق فى أوقاتها المعيّنة بلا إبطاء، لا توجد عشوائية في قيادة الله للأزمنة والأوقات بل كل شيء بترتيب ونظام، وقبل مجيء المسيح كان هناك زمان معيّن أمام الله لابد أن يكمل ويصل إلى مداه، كان مرور السنين يكمّل أشياء كثيرة في مقاصد الله الأزلية، كان هناك **زمان للانتظار** لابد أن يصل إلى كماله، حيث يمتحن الله قلوب أتقيائه ويُطهرها، وكان هناك **زمان لسلطان الشر** حتى يصل إلى منتهاه، حيث يترك الله الفرصة كاملة للإنسان حتى يتوب وإذا استمر في شره معتزاً بالإثم، فلابد عندئذ أن يُنزل الله الأعزاء عن الكراسى ويصرف الأغنياء فارغين، كما كان هناك **زمان للناموس**، ذلك النظام الذى وضع الأبناء القُصَّر تحت أوصياء ووكلاء، ورموز وشرائع وطقوس، كان لابد أن يصل الناموس إلى غايته ويعلن للإنسان فشله في الوصول إلى الله بالأعمال الجسدية، ويعلن احتياج الإنسان إلى عهد جديد من التعامل بين الله والإنسان، عهد قائم على نعمة الله الغنية وكفارته الكاملة، عهد غير مؤسس على استحقاق الإنسان على أى مستوى، لأن الإنسان أثبت فشله وعجزه عن إرضاء الله على كل المستويات.

وعندما كملت كل هذه المقاصد أمام الله ووصل الوقت المحدد إلى نهايته وبلغ كل زمان إلى ملئه، عندئذ أرسل الله ابنه إلى العالم ليبدأ في شخصه زماناً جديداً وعهداً جديداً.

دعونا نفتدى الوقت !!

نُجرَّب كثيراً بأن نظن أن مرور الزمان بلا قيمة أمام الله وأن الغد لابد أن يُشبه اليوم، فلا داعى لطلب شيء!! ونترك أنفسنا نسير مع تيار الأيام بلا فهم مثل السمكة الميتة التى يجرفها تيار المياه بلا مقاومة، غير عالمين أن كل ساعة تمر تكمِّل شيئاً أمام الله ولها مقصد صالح في حياتنا، إذا عرفنا كيف نتمم هذا المقصد في حياتنا فطوبى لنا لأننا عرفنا كيف نفتدى وقتنا، أما إذا تركنا هذه الساعة تمر من بين أصابعنا فالويل لنا عندما يصل الزمان إلى ملئه وتنتهى الفرصة التى كانت متاحة لنا وتتبدل الأحوال ونجد أنفسنا خارج مشيئة الله ورضاه، ويل لنا إذا أسأنا الحساب فحسبنا أناة إلهنا تباطوءاً ولم نحسبها خلاصاً، وحسبنا صمته غياباً وليس امتحاناً لتقوية إيماننا، ويل لنا إذا ظننا أنه مبتعد لا يُراقب الأحداث ولا يُبالى بمرور الزمن.

دعونا نفتدى الوقت من السلبيّة والاستهانة والغفلة، ونستغل كل ساعة في تتميم مشيئة إلهنا والوجود الدائم في محضره، لا تغفل عيوننا عن انتظاره وتوقع استجابته في كل لحظة، في كل صباح لنعلم أن هذا اليوم له حساب أمام الله ولتكن طلبتنا أن نكون بحسب قلبه في هذا اليوم، حتى عندما يصل الزمان إلى ملئه نكون من أولئك المنتظرين المستعدين لاستقبال البركة.

- ❑ أيتها النفس الصارخة والباحثة عن الشبع والارتواء بالبر، اعلمى أن هناك ملءً لزمان السعى والانتظار، بعده سوف يغمرك الرب بكل شبع وارتواء.
- ❑ أيتها النفس المتألمة تحت وطأة الشر والظلم، اعلمى أن هناك ملء لزمان سيادة الشر، وعنده سوف تسقط عروش الظلام وتندك حصون الشر.
- ❑ أيتها النفس السادرة في غيِّها واللاهية في سُكر وخمر هذا العالم والناسية إلهك، اعلمى يقيناً أن هناك ملءً لزمان صبر الله وطول أناته، وإذا جاء الملء، ولم تعلمى بعد زمان افتقادك فسيكون هلاكك مؤكداً وسقوطك عظيماً.

- ٤ - ذهب ولبان ومر

"وقدموا له هدايا ذهباً ولباناً ومراً" (مت ٢: ١١)

القيادة الإلهية العجيبة التى قادت هؤلاء المجوس الوثنيين ليؤمنوا بميلاد ملك لليهود، وليتحملوا مشقة سفر طويل يُقدَّر بسنتين لكى يسجدوا لهذا الوليد، بل ليؤمنوا أن هذا الملك العتيد لا يضطجع في قصر فخم بل يقيم في بيت بسيط، لاشك أنها نفس القيادة التى دفعتهم لحمل تلك الهدايا بالذات وتقديمها للطفل يسوع حتى وإن غاب معناها الحقيقى عن أذهانهم. فلكل من هذه الهدايا ما يرمز إليه في العبادة الهيكلية التى لم يكن يفهمها إلا اليهود، ولكل منها دلالته المستقبلية في حياة هذا الطفل لا يعرفها إلا الله وحده.

ذهب

الذهب يشير إلى العنصر الإلهى في العبادة اليهودية، ومنه كانت تُصنع أجزاء الهيكل المعبِّرة عن الطبيعة الإلهية مثل غطاء تابوت الشهادة وكروبى المجد (خر ٣٧) لقد كان أول هدف من إرسالية يسوع إلى العالم هو أن يحمل للإنسان إعلاناً كاملاً عن طبيعة الله. فكم من ظلمة أحاطت بطبيعة الله في قلب وذهن الإنسان، ظلمة مركَّبة من فساد الإنسان وكذب إبليس، حتى بات الإنسان جالساً في الظلمة وظلال الموت (لو ١: ٧٩) لكن الله شاء أن يُشرق من العلاء على ظلمة الإنسان ويرسل له إعلاناً كاملاً عن طبيعته، إعلاناً متجسداً في شخص الابن الوحيد الذى هو دائماً في حضن الآب.

قد كانت هناك بعض الومضات في وسط الظلام أثناء عصور الأنبياء، عندما كانوا ينطقون بإعلانات جزئية عن طبيعة الله، إلا أن هذه الومضات كانت محدودة للغاية بضعف ونقص الأوانى البشرية المُستخدمة. لكن الرب يسوع له المجد كان هو النور الحقيقى الكامل الذى لم يتكلم عن الله بل حمل بداخله ذات الطبيعة الإلهية في كمال إشراقها وعاش بها بين الناس. لقد ظهر الله في الجسد (١تى ٣: ١٦) ورأينا في يسوع طبيعة الآب (يو ١٤: ٩) لقد تجسدت في شخصه المبارك محبة الله للإنسان ورحمته وأبوته، وتلامسنا فيه مع قداسة الله وحكمته وعدله، وكم فرحنا بقوته وسلطانه على الأمراض وأرواح الشر وقوى الطبيعة، وأذهلنا صليبه وفداؤه وتكفيره عن خطايانا، بالاختصار لقد رأينا في يسوع إعلاناً كاملاً عن إله لم نكن نعرفه من قبل، ذهباً نقياً لم تشُبه شائبة ولم تحدُّه طبيعة بشرية ساقطة.

ولبان

اللبان كان يدخل في صناعة البخور الذى يُوضع على مذبح الذهب في القدس لترتفع أمام الله رائحة طيبة كل الوقت (خر ٣٠: ٣٤ - ٣٨) ولا يظن عاقل أن الله الروح كان يُسرُّ برائحة لبان يحترق، لكن اللبان - شأنه شأن كل تفاصيل العبادة الطقسية قديماً - كان رمزاً مادياً يشير إلى حقيقة روحية لم تأت بعد، لقد ظل اللبان الموضوع على المذبح يشير إلى إنسان كامل سوف يأتى تخرج من حياته الأدبية كمالات ترضى الله وتسرُّ قلبه، حتى جاء يسوع فقُدِّم له اللبان لكى ينتهى في شخصه الرمز وتبدأ الحقيقة.

لقد حمل يسوع بداخله الطبيعة الإلهية الكاملة وفي نفس الوقت حمل طبيعة بشرية كاملة، وكإنسان كامل أظهر للآب سلوكاً مشبعاً لقلبه، قدَّم كل الوقت طاعة كاملة ومحبة كاملة وتسليماً كاملاً، لقد أكمل في حياته «كل بر» (مت ٣: ١٥) وإذا كان الإعلان الكامل عن الطبيعة الإلهية قد أشبع احتياج الإنسان المشتاق لمعرفة الله فإن السلوك الكامل للطبيعة البشرية قد أشبع قلب الله المشتاق لأن يرى من تعب يديه ويشبع. **لقد أغنى الذهب قلب الإنسان الفقير وأبهج اللبان قلب الله القدير!!**

ومُر

المر كان المكون الرئيسى في صنع دهن المسحة المقدس الذى كانت تُمسح به كل أجزاء الهيكل فتتقدس (خر ٣٠: ٢٢ - ٣٠) فلكى يجمع في شخصه بين شبع الله القدوس وشبع قلب الإنسان النجس كان لابد أن يتجرع مرارة غضب الله وعلقم خطية الإنسان!! لقد تمزقت حياته الكريمة بين طرفى النقيض: قداسة الله وشر الإنسان، لكى يصنع بجسده جسراً يمكن للإنسان أن يعبره رجوعاً إلى الله ويمكن لله أن يعبره مرحباً بالإنسان دون أن تحتج قداسته أو تهتز عدالته. **لكى يذوق الله طعم الرضا ويذوق الإنسان طعم الغفران اختار سيدى أن يذوق طعم المر (مر ١٥: ٢٣).**

* وإذا كان يسوع قد أتى بإرسالية مثلثة الجوانب وهى أن يحمل الله إلى الإنسان ذهباً ويحمل الإنسان إلى الله لباناً ويدفع ثمن المصالحة مراً. فالكنيسة التى هى جسده ينبغى أن تقوم بذات العمل، لابد أن يرى العالم فينا إعلاناً نقياً عن طبيعة الله (٢ بط ١: ٤) وينبغى أن تكون حياتنا ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله (رو ١٢: ١) وينبغى أن نتعب لكى نأتى بالآخرين إلي الله ونتمخض حتى يتصور المسيح فيهم (غل ٤: ١٩).

أخى العزيز، **ما مقدار ما تملكه من الذهب واللبان والمر؟!**

- ٥ -

حتى الموت

«نفسى حزينة جداً حتى الموت» (مت ٢٦:٣٨)

كل عطاء في حياة سيدى كان «حتى الموت»!! لقد قدَّم نفسه بالكامل في كل الاتجاهات، في اتجاه الآب قدَّم طاعة حتى الموت (في ٢:٨) وفي اتجاه الإنسان قدَّم محبة حتى الموت (يو ١٥:١٣) أو حتى المنتهى (يو ١٣:١) وفي اتجاه مملكة الشر قدَّم حزناً وألماً واحتمالاً حتى الموت (مت ٢٦:٣٨).

ليس موت الجسد

والموت المقصود هنا ليس موت الجسد، فالرب أحب تلاميذه حتى المنتهى وهو بعد على قيد الحياة، وحَزِن حتى الموت وهو مازال في بستان جثسيمانى. إن المقصود بالموت هنا هو نهاية قدرة الإنسان على العطاء، هو فقدان الطاقة لعمل المزيد، هو نهاية الإمكانية للاستمرار في الحياة، حتى لو كان الإنسان ـ بحسب الجسد ـ مازال محسوباً في عداد الأحياء!!

لقد أطاع يسوع الآب بكل طاقة وقدرة الإنسان على الطاعة، وضع كل إرادته وفكره ومشاعره في طاعة الآب، كان دائماً فيما لأبيه، لم يدَّخر وسعاً ولم يوفر جهداً، كل حياته بذلها في طريق طاعته للآب، لقد أطاع «حتى الموت» وهو بعد لم يصل إلى الصليب، ولم يكن «موت الصليب» إلا تتويجاً للطاعة «حتى الموت» التى كانت ظاهرة في كل حياته له المجد.

ولقد أحب يسوع الإنسان بكل إمكانية الإنسان أن يحب، إن نقطة النهاية بالنسبة لأى محبة هى بذل الذات، فليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع نفسه لأجل أحبائه، إن بذل النفس هو أعظم أو أقصى مدى تستطيع أن تصل إليه المحبة، أو هو «منتهى» المحبة، والرب وصل إلى هذا «المنتهى» في كل يوم من أيام حياته على الأرض، في كل يوم كان يبذل نفسه عن الخراف، لقد أحبنا «إلى المنتهى» وهو بعد لم يصل إلى الجلجثة.

ولقد عانى الرب كثيراً في معركته ضد إبليس والخطية، لقد تألم إلى أقصى مدى تستطيع المشاعر أن تتألم، واكتأب إلى أقصى مدى تستطيع المشاعر أن تكتئب، وحَزِن إلى أقصى مدى تستطيع المشاعر أن تحزن، أي أنه حَزِن «حتى الموت» وهو بعد لم يجرع كأس الموت فعلياً.

تحصيل حاصل !!

بهذا المفهوم نستطيع أن نرى أن صلب المسيح فعلياً لم يكن سوى تحصيل حاصل، فهو لم ينه حياة مازال فيها قدرة على العطاء، ولم يوقف مسيرة محبة كان ينبغى لها أن تستمر أكثر، ولم يقطع الطريق وهو بعد لم يكتمل، بل أنه أنهى حياة قد ذابت فعلاً في طاعة الآب، وصَلَبَ محبة كانت قد بذلت نفسها فعلاً لأجل أحبائها، ووضع حداً لطريق كان قد وصل فعلاً إلى منتهاه!! اسمعه وهو يقول للآب في ليلة الصليب: «العمل الذى أعطيتنى **قد أكملته**» (يو ١٧:٤) **إن إبليس لم يكن يستطيع أن ينهى عمل الرب إلا إذا كان الرب قد انتهى من عمله فعلاً، ولم يكن يستطيع أن يصل بالموت إلى حياة الرب إلا إذا كان الرب قد وصل بحياته إلى نقطة الموت فعلاً!!**

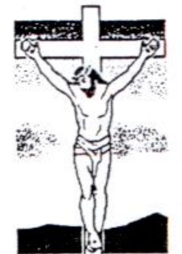
كم من نفوس وصل إليها الموت الجسدى دون أن تكون قد وصلت «إلى الموت» في عطائها، كم من نفوس قطع الموت طريقها وهو بعد لم يكتمل، وأنهى فرصة طاعتها وهى بعد لم تقدم طاعة كاملة، وأنهى فرصة محبتهم للرب دون أن يقدموا للرب محبة «إلى المنتهى»، ادَّخروا طاقتهم لأنفسهم وبذلوا عطاءهم لذواتهم. وعندما يحين وقت انفصام حبل الفضة وانسحاق كوز الذهب لا يجد الله في الجرَّة المكسورة على العين ما يشبع قلبه أو يرضيه، لقد وصلت سنين العمر إلى منتهاها بينما محبتهم لله لم تصل بعد «إلى المنتهى».

لكن سيدى ورغم أن الموت جاءه وهو بعد في مقتبل العمر وفي منتصف أيامه إلا أنه قد قدَّم في سنينه القليلة عملاً كاملاً ومحبة «إلى المنتهى» وطاعة «حتى الموت»!!

كن أميناً إلى الموت!!

إن الرب الذى قدَّم لنا حياته «حتى الموت» يطالبنا بأن نبادله نفس العطاء وبنفس المقياس، إنه ينتظر منا أن نكون أمناء له «حتى الموت» (رؤ ٢:١٠) وبنفس المفهوم السابق نقول إنه لا يقصد موت الجسد، فأمانتنا للرب لا تؤدى بالضرورة إلى موت الجسد، لكنه يقصد أن نكون أمناء إلى منتهى طاقتنا، أن نحبه بكل طاقة مشاعرنا على الحب، أن نحتمل المقاومة إلى نهاية قدرتنا على الاحتمال، وعندما نصل إلى نقطة الموت في أمانتنا سننال منه إكليل الحياة، أى سننال رضاه على حياتنا وسروره بها، لأنها حياة قدِّمت له ما يليق بما قدَّمه لنا، حياة تحبه حتى الموت لأنه هو أحبنا «حتى الموت».





"وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه" (لو ٢٤ : ٤٠)

يداه!! لم يشهد التاريخ مثل هاتين اليدين!! يدان مفتوحتان دائماً لكى تشبع الجميع رضى، أبداً لم تُغلّ أو تغلق في وجه محتاج، لم تمتد قط لتأخذ شيئاً لنفسها بل كل ما وُضع فيها ارتد إلى صاحبه أضعافاً، وضعوا فيها خبزات قليلة فأشبعت جموعاً غفيرة، وتلاميذ قليلين ففتنوا مسكونة كبيرة، كل ما وُضع في تلك اليدين اكتسب قيمة أبدية تفوق بكثير قيمته الأصلية.

يداه!! كم شفت أمراضاً وفتحت عيون عميان، إذا امتدت لتلمس النعش تتوقف مسيرة الموت في الحال وتدبُ الحياة من جديد، وإذا كانت أى يد أخرى إذا امتدت لتلمس الأبرص تتنجس وتجعل صاحبها نجساً، فهذه اليد وحدها كاملة الطهارة، تقترب من الأبرص المنبوذ وتلمسه ولا تتنجس بل تحول نجاسته إلى طهارة في الحال.

ورجلاه!! ما أعجب هاتان الرجلان!! إنها ليست كأرجلنا تلك السريعة إلى سفك الدم، بل هى سريعة دائماً وتاعبة جداً في بحثها عن الضال حتى تجده، كم سارت ساعات طويلة لتجد نفساً واحدة، كم صعدت جبالاً ونزلت ودياناً وداست أشواكاً حتى تجد الضال وترجع به إلى البيت.

رجلاه!! لم تنتظر قط أن يأتى إليها الضال بل كانت تذهب إليه حيث هو، إلى قبور كورة الجدريين أو بئر مدينة سوخار أو رواق بيت حسدا.

رجلاه.. عندها خرجت الحمى (حب ٣ : ٥) عندها أفرغ القلب الحزين همومه وأعلن عن توبته ورجوعه، وعندها أعلنت النفس تكريسها وسكبت ناردينها، وهناك ـ عند رجليه ـ كان النصيب الصالح الذى لا يُنزع.

لكن ما هو رد فعل الإنسان تجاه تلك اليدين والرجلين؟

ثقبوا يدىَ ورجلىَ!! مز ٢٢ : ١٦

ولا عجب، فأى انزعاج صنعته تلك اليدان والرجلان للإنسان الساقط!! كم فضحت أعماله الميتة وفساد قلبه المستتر، كم أنزلت الأعزاء عن الكراسى التى اعتلوها بالباطل، كم صرفت الأغنياء فارغين وشتتت المستكبرين بفكر قلوبهم، لأجل كل هذا امتلأ الإنسان حقداً وحسداً وتمنّى أن يقيد تلك اليدين والرجلين، أن يسمِّرهم فلا تعود تتحرك، أن يثقبهم فتسكن إلى الأبد.

وأى انزعاج صنعته تلك اليدان والرجلان لمملكة الشر!! وأى دمار سببته لإبليس وجنوده!! كم قوضت حصونه وأفسدت خططه وأطلقت أسراه!! لذلك امتلأ هو الآخر حقداً على تلك اليدين والرجلين، احرقه غضبه وأمضّه حسده وتمنّى أن ينقض بكل جنوده على يدى الرب المبارك ورجليه ليسمرهم، ليثقبهم ويثبتهم في مكانهم لكى لا يعودوا يتحركون إلى الأبد.

وأخيراً أتت الساعة، ساعة الإنسان وسلطان الظلمة (لو ٢٢ : ٥٣) ساعة أعطاها الآب لتتميم مشيئة الإنسان وإبليس معاً، ساعة ظلمة قاسية اتحد فيها حسد إبليس مع حسد الإنسان، فما كان منهم إلا أن انقضوا على «يديه ورجليه» ليوثقوهم بعنف ويدفعوهم بقسوة إلى خشب الصليب الخشن، ويثقبوهم بمسامير غليظة لكى لا تتحرك أيضاً، ثم رفعوه عالياً لكى يشاهد الجميع ـ لآخر مرة ـ تلك اليدين والرجلين، وكأن إبليس يصيح بصوت عال «لن تعود تلك اليدان تشفيان أحداً، لن تعود ترعى وتقود، مَنْ يضل ستلتهمه الذئاب لأنه لن توجد بعد الرجلان التى تسعيان وراء الضال حتى تجده..»!!

ولكن هل يمكن أن يمسك الموت تلك اليدين والرجلين؟! هل يمكن لظلمة القبر أن تحجز النور الخارج منهم؟ هل يمكن لقسوة الإنسان وظلمه أن تبدد المحبة الكامنة فيهم؟ هل ينجح إبليس بكل شره أن يقيدهم؟!

انظروا يدىَ ورجلىَ !! لو ٢٤ : ٣٩

فجأة، والتلاميذ مجتمعون في العلية المغلقة، وقف يسوع في الوسط وقال لهم: «سلام لكم»!! لقد حملته رجلاه إليهم حيث هم كما كانت تفعل دائماً، حيث أغلال الخوف والشك ومشاعر الوحدة واليتم، وها هو يفتح يديه ويمنحهم سلاماً كما كان يفعل دائماً، وكأنه يقول لهم: «انظروا يدىَ ورجلىَ، إنها تماماً كما كانت دائماً، لم تتغير ولم تتوقف، ثقوا ولا تخافوا، فلا توجد قوة تستطيع أن تمنعهم من الحركة مرة أخرى» ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب!!

ومازالت يداه تعملان حتى اليوم، ترعى وتطعم وتشدد وتقوى، ومازالت رجلاه تسعى نحو الضال وتدخل مخادع المرض والموت وتصل إليك حيث أنت، هل تلامست مع يديه ورجليه؟ هل أخذت من يديه كأس خلاصك. وهل ركعت وقبّلت رجليه التى بحثت عنك طويلاً؟ أم تراك مازالت بعيداً عنه؟ أخى الحبيب، إن حياتك كلها هناك.. في يديه ورجليه!!

لكل واحد صليبه

— ٧ —

« إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى » (مت ١٦ : ٢٤)

سيدة مؤمنة جادة أرسلت إلى رجل الله «هنرى سوس» تسأله عن مشكلة في حياتها الروحية، فهي تفرض على نفسها أعمالاً قاسية وتعيش في تقشف وتزمت، كل هذا لأنها تحاول أن تشارك المسيح آلامه التى شعر بها وهو على الصليب!! ولكن الأمور لم تكن تسير معها على ما يرام ودائماً كانت تشعر بالتقصير وأرادت أن تعرف رأى الخادم.

فكتب القديس العجوز إلى ابنته في الروح قائلاً: «تذكرى يا أختى أن ربنا لم يقل: إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل **صليبى**، بل قال ويحمل **صليبه**، إنه اختلاف صغير في حرف واحد ولكنه يحمل اختلافاً كبيراً في المعنى»!!

تشابه واختلاف

الصلبان كلها متشابهة في الجوهر لكن لا يوجد اثنان منهم متشابهان في التفاصيل، الصلبان كلها أداة للموت لكن هذا الموت يختلف في تفاصيله من شخص إلى آخر، لم يكن - ولن يكون - هناك صليب مماثل تماماً للصليب الذى حمله المخلّص، الموت المفزع الرهيب الذى عاناه المسيح كان عملاً متفرداً في تفاصيله وسط اختبارات الجنس البشرى كله، وكان لابد أن يكون هكذا لكى يمنح الحياة لكل العالم، إن حمل الخطية والظلمة وغضب الآب كانت آلام خاصة بهذه الذبيحة المقدسة، ومحاولة طلب اختبار مطابق لاختبار المسيح سيكون أكثر من مجرد خطأ، سيكون إهانة للمقدسات!!

كل صليب هو أداة للموت ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يموت على صليب شخص آخر، كل إنسان يموت على صليبه الخاص، لذلك قال يسوع: «يحمل **صليبه** ويتبعنى».

قضائياً وعملياً

من الناحية القضائية نقول إن صليب المسيح يشمل كل الصلبان، وموت المسيح يتضمن كل الميتات، هذا ما يقوله الكتاب بوضوح: «إذ نحن نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا» (٢كو ٥:١٤) «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىّ» (غل ٢ : ٢٠) «صليب ربنا يسوع المسيح الذى به قد صُلب العالم لى وأنا للعالم» (غل ٦:١٤).

هذا بخصوص عمل الله القضائى في الفداء، المؤمن بصفته عضواً في جسد المسيح قد صُلب قضائياً مع رأسه السماوى، أمام الله كل مؤمن حقيقى محسوب أنه قد مات عندما مات المسيح، وكل اختبار روحى نختبره في حياتنا مؤسس على هذا الاتحاد بالمسيح في صليبه.

لكن من الناحية العملية - وأثناء الممارسة اليومية لصلب الإنسان العتيق - يبرز دور صليب المؤمن الخاص: «يحمل صليبه»!! **هذا ليس صليب المسيح بل هو صليب المؤمن** الشخصى الذى بواسطته يصبح صليب المسيح فعّالاً في صلب الطبيعة العتيقة وتحرير المؤمن من سلطانها.

إن أراد أحد .. !!

صليب المؤمن الخاص هو ذلك الصليب الذى يحمله المؤمن بإرادته، وهنا يكمن الفرق بين صليب المؤمن وصليب الرومان الذى كانوا يعلّقون عليه ضحاياهم، وقتها كان المحكوم عليهم يذهبون إلى الصليب رغم إرادتهم لكن المؤمن يذهب إلى الصليب بمحض إرادته!! لا يوجد قائد رومانى استطاع أن يشير إلى الصليب ويقول: «إن أراد أحد فليتقدم إلى الصليب»!! لكن المسيح وحده - له المجد - هو مَنْ استطاع أن يقول هذه الجملة الفريدة: «إن أراد أحد...»!! وبقوله هذا وضع الأمر كله بين يدى المؤمن: يمكنه أن يرفض حمل الصليب ويبتعد عنه، ويمكنه أن يخضع وينحنى ويحمل **صليبه** ويتقدم به صاعداً إلى النهضة المحاطة بالظلام، **والفرق بين الحياة الجسدية العقيمة والحياة الروحية العظيمة هو تماماً الفرق بين الاختيارين!!**

.. ويحمل صليبه

إذاً فالسير في اثر المسيح خطوة بخطوة في معاناة مطابقة لمعاناته على صليب الجلجثة هو أمر غير ممكن لأى منا، وبالتأكيد أن الله لا يطلبه منا، ما يطلبه الله هو أن كل واحد ينبغى أن يحسب نفسه ميتاً بالفعل مع المسيح ثم يقبل باختياره ما قد يصادفه في مسيرة الطاعة اليومية من إنكار للنفس وتوبة وتواضع وخضوع... هذا هو «صليبه» الخاص، وهو الصليب الوحيد الذى دعاه الرب ليحمله، وتفاصيل هذا الصليب تختلف من مؤمن إلى آخر، لا يوجد إثنان يتشابهان في التفاصيل التى يجيزها الرب فيها، وإن كان الهدف الأخير من وراء كل الصلبان يبقى واحداً: صلب الإنسان العتيق عملياً.

حياة القيامة

« قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة »
(يو ١١ : ٢٥)

-٨-

ما هى حياة القيامة؟ هى الحياة التى تجتاز الموت ثم تظل حية، كل ما يحيا بعد الموت يمتلك حياة القيامة، لقد أتى الموت إلى الإنسان بعدما أكل من شجرة معرفة الخير والشر، ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يعد الإنسان قادراً على هزيمة الموت، كل الذين دخلوا القبر لم يعودوا أبداً، أعداد لا تُحصى من البشر بمجرد ذهابهم إلى الموت لا يعودون، لكن من بين كل هؤلاء، كان هناك شخص واحد ذهب إلى الموت ثم عاد منه حياً. هذا الشخص الواحد هو ربنا يسوع المسيح: «فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت، فوضع يده اليمنى عليَّ قائلاً لى: لا تخف، أنا هو الأول والآخر، **والحى وكنت ميتاً وها أنا حى إلى أبد الآبدين**، آمين، ولى مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ ١ :١٧، ١٨).

أنا هو القيامة والحياة

الرب يسوع هو نفسه القيامة، نوعية الحياة التى فيه هى حياة القيامة، الحياة التى تمر من خلال الموت لكن الموت لا يستطيع أن يمسكها (أع ٢ :٢٤) الكتاب يستخدم كلمة «يمسك» لكى يصف سلطان الموت، الناس تدخل إلى الموت ولا تقدر أن تخرج مرة أخرى لأن الموت «يمسك» بقوة كل الداخلين إليه، لكن الموت لم يقدر أن يمسك بحياة المسيح، لذلك فالحياة التى في المسيح ليست مجرد حياة بل هى حياة القيامة، الحياة التى اجتازت الموت ثم ها هى تحيا إلى الأبد، الحياة التى نزلت إلى أقسام الأرض السفلى ثم صعدت إلى قمة المجد، **الحياة التى تعيش وهي تحمل آثار الموت!!**

آثار الموت

بعدما قام الرب يسوع من بين الأموات أظهر لتلاميذه آثار المسامير في يديه ورجليه وأثر الحربة في جنبه، وطلب منهم أن يلمسوها ويمتحنوها بدقة، لأن هذه الآثار هى دلائل حياة القيامة، ما أراد الرب أن يؤكده لتلاميذه ليس مجرد أنه قد جُرح ومات بل أنه جُرح ومات وقام ثانية، أنه يحمل في جسده آثار الموت ومع ذلك هو حى، هذه هى حياة القيامة.

من كتاب «الكل في المسيح» - يصدر قريباً عن لجنة النشر

القيامة في حياتنا

ينبغى أن تكون نوعية الحياة التى فينا هى حياة القيامة، لكن للأسف مازال في حياتنا أشياء عديدة لا تحمل آثار الموت ولذلك لا يمكن أن نعتبرها حية بحياة القيامة، إنها حية بقوى الطبيعة وليس بقوى القيامة، هذا أخ سعيد لأنه يمتلك القدرة والمهارة والبلاغة، لكن للأسف هذه الإمكانيات لا تحمل آثار الموت ولذلك هى حية بقوى الحياة الطبيعية وليس بقوى حياة القيامة، وبالتالى هذه الإمكانيات عاجزة عن الشهادة ليسوع لأنها غير عاملة بحياته، لأن حياته التى يعطيها لنا هى دائماً حياة القيامة.

وهذا أخ آخر يمتلك موهبة عظيمة وقدرات هائلة، إنه يبدو «حياً» ومتحركاً جداً، ومع ذلك لا تلاحظ آثار الموت على حياته تلك بل تستطيع أن تلاحظ بوضوح قدراً هائلاً من الثقة بالنفس والاعتداد بالذات، يثق أنه لا يخطىء أبداً وهو متأكد من النجاح في أى شيء يفعله، إن الحياة النابضة بداخله هى حياة الذات وليست حياة القيامة، وبالتالى لا نندهش إن وجدنا هذه الموهبة العظيمة وتلك القدرات الهائلة عاجزة تماماً عن خدمة الله أو تمجيد المسيح.

نحن لا نقول إن الشخص الذى يمتلك حياة القيامة لا يمتلك مواهب عظيمة أو قدرات هائلة، بل نقول إنه يحمل آثار الموت على مواهبه وقدراته، لا تستطيع أن تلاحظ عليه ثقته في ذاته بل كل ثقته في الرب، إنه يستطيع أن يعمل أشياء كثيرة لكنه لا يعملها إلا إذا تحركت حياة الرب بداخله لعمل هذه الأشياء، لقد فقد القدرة على التحرك الذاتى وقواه الخاصة باتت في نظره ضعفاً، هذا ما نعنيه بحياة القيامة.

الصليب والقيامة

لا يمكننا الفصل بين الصليب والقيامة في حياتنا، نحن نحتاج إلى كليهما، الصليب قوة «إنهاء» أما القيامة فقوة «إحياء»، الصليب يضع نهاية لكل الأشياء النابعة من الذات، بمجرد أن تجتاز الصليب لا تقوم ثانية لأن الصليب أنهاها، أما الأشياء النابعة من الله فهى تجتاز الصليب وتظل حية، تحمل آثار الموت ومع ذلك تبقى حية، هذه هى قوة القيامة.

إخوتى، لو أردنا أن نعرف القيامة كقوة إحياء ينبغى أن نعرف الصليب كقوة إنهاء، لأن القيامة تستلزم المرور من خلال الصليب، والصليب دائماً يجردنا من أشياء كثيرة لكن ما يبقى حياً بعد الصليب فهو وحده المتمتع بحياة القيامة.



" لأنه قال فكان، هو أمر فصار " (مز ٣٣ : ٩)

أشتاق لكلمة تخرج من فمك وتلمس حياتى.. فتغيّرها ،
أشتاق لأمر ينفذ بسلطان إلى أعماقى .. فيحرّرها ،
كلمتك يا سيدى .. هى كل ما أحتاج إليه!!

" لأنه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتُنبت وتعطى زرعاً للزارع وخبزاً للآكل، هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمى " (إش ٥٥ : ١٠)

أرض حياتى المجدبة تنتظر كلمتك يا سيدى، مشققة هى من العطش وخالية من الثمر، حرثتها نعمتك كثيراً لكن الحرث وحده لا يكفى بدون الماء، مدفونة في باطنها بذار كثيرة لكن البذار وحدها لا تنبت بدون الماء. أحتاج إلى كلمة محيية... إلى أمر بالنماء!!

كم من رؤى في روحى تنتظر سلطان كلمتك لتتجسد في الواقع الملموس، كم من آمال مدفونة في خيالى ستبقى ـ بدون كلمتك ـ أسيرة الوهم والخيال، الزارع المبارك الذى ألقى بذاره في أرضى لم يحصد بعد ما يعوّض تعبه، والجائع المسكين الذى عبر أرضى مضى جائعاً لأنه لم يجد ما يسد رمقه، بدون كلمتك يا سيدى سأظل أرضاً بلا ثمر وتعباً بلا شبع وزرعاً بلا حصاد!!

إنى أحتاج كلمتك يا سيدى.. كلمة أمر بالحياة!

" أرسل كلمته فشفاهم ونجاهم من تهلكاتهم " (مز ١٠٧ : ٢٠)

كلمتك تشفينى يا سيدى!! كم من مرض تأصّل عميقاً في نفسى وأطبق بعنف على قلبى، فأهدر طاقتى وقيّد خطوتى وأحزن روحك داخلى، إن أصعب الأمراض هى أمراض النفس التى لا يراها المحيطون بى ولكنى أشعر بها تدمر حياتى في كل يوم: الكبرياء، العناد، الطمع، الغباء... كم كانت قامتى سترتفع لمجدك لولا هذه الأمراض الكريهة!!

إنى أرجو كلمتك يا سيدى .. كلمة أمر بالشفاء!

"الله الذى قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذى أشرق في قلوبنا " (٢ كو ٤ : ٦)

عندما تأمر يا سيدى باشراق تتبدد ظلمة قلبى وأبصر الأشياء جلياً، بدون هذا الاشراق أنا لا أرى شيئاً كما ينبغى أن أراه، الناس عندى كأشجار يمشون، كم أخطأت في أحكامى وضللت في طريقى وسقطت في مسيرى لأنى لا أرى جيداً، تراءف علىّ يا سيدى ولا تدعنى أعثر في ظلمتى، هبنى أن أراك كما أنت وأرى نفسى كما أنا وأرى كل الأشياء كما هى: بأحجامها الحقيقية وبأسمائها الحقيقية!!

إنى أشتاق لكلمتك يا سيدى .. كلمة أمر بالاشراق !

" أليست كلمتى كنار وكمطرقة تحطم الصخر " (إر ٢٣ : ٢٩)

ما أنجس قلب الإنسان، وما أقساه!! بدون كلمتك لا يمكن لهذا القلب أن يطهر أو يلين، بداخلنا قلب لا يمكن أن يندم على خطية أو يشعر بأسف على انحراف، تيارات العالم الجارفة جعلته لا يبالى بمقاييس قداستك، منذ زمن طويل لم تعرف عيوننا دموع توبة حقيقية، بداخل مخادع النفس نجاسات مخفية عن العيون، على جدران القلب الداخلية منقوشة صور لكل رجاسات الأمم، وعلى مذابحنا الخفية تُرفع ذبائح غريبة لآلهة غريبة!!

لا يستطيع أن يطهّر قلوبنا إلا نار كلمتك يا سيدى .. نار تلتهم كل نجاساتنا ولا تتركها إلا رماداً !!

ولا يستطيع أن يحطم صخر جمودنا وعنادنا إلا مطرقة كلمتك يا سيدى.. مطرقة التبكيت التى تكسّرنا أمامك مرة وإلى الأبد !!

إنى أنتظر كلمتك يا سيدى .. كلمة أمر بالتطهير !

" أظهر كلمته في أوقاتها الخاصة " (تى ١ : ٣)

أعلم يا سيدى أن لكلمتك أوقاتها الخاصة !! بحسب حكمتك ترتّب زماناً للافتقاد وزماناً للنجاة، كما تخصص وقتاً للامتحان ووقتاً للعقاب والانتقام من الشر، أعط لعبدك العين المفتوحة لكى ينتظر كلمتك في أوقاتها الخاصة، فأقدّم توبة في زمن التوبة، وأطلب وجهك في وقت الافتقاد، وأحنى رأسى بخضوع في يوم الضيق والقضاء، أعطنى أن أرتّب حياتى بحسب كلمتك!!

ساعدنى يا سيدى لتكون كلمتك ثابتة في داخلى (يو ٥ :٣٨) ولكى أحفظها في زمن الارتداد (رؤ ٣ :٨) إن كلمتك هى أغلى ما أملك وأثمن ما في حياتى، هبنى أن أنتظرها دائماً حتى متى خرجت من فمك تجدنى مهيئاً لها وأرضاً صالحة لعملها، أعطنى نعمة لكى أكون عبدك الذى تدور حياته كلها حول محور واحد .. **كلمتك يا سيدى !!**

- ١٠ -

أؤمن يا سيدى

"أؤمن يا سيد، فأعن عدم إيمانى" (مر ٩: ٢٤)

بين عامين أقف .. وأسترجع عاماً انتهى، مر سريعاً وعبر، تبددت أيامه كالبخار الذى ظهر قليلاً ثم اضمحل،

مثل كل شىء انتهى، فكل شىء إلى نهاية ..

الفرح ينتهى والحزن أيضاً، السعادة تنتهى والشقاء ينتهى ..

وأنا .. ذلك الخيال الذى يتمشى قليلاً ثم يعبر فلا يوجد ..

أنا .. ذلك التراب الذى يذهب ويجىء، ويملأ الدنيا ضجيجاً..

يمتلىء بأفراح وهمية وينحنى تحت أحزان خيالية..

يخاف من ظلال عابرة، ويقضى حياته هارباً بلا طارد..

أنا أيضاً تنقرض أيامى على الأرض سريعاً وتنتهى..

ولكنى وسط عالم منتهٍ .. أؤمن يا سيدى..

أؤمن بأنك وحدك باقٍ لا تنتهى..

وروحى تتعلق بك لأنها تشتاق إلى البقاء والدوام..

روحى ترفض النهايات لأنك وضعت الأبدية في قلبها.. يا أبدى،

تؤمن روحى بأنها وُلدت للبقاء.. يا باقٍ،

لذلك فهى تتشبث بك من كل عوامل الموت..

وتؤمن بأنك تمنحها البقاء فيما وراء عالم الفناء.

❑❑❑

بين عامين أقف.. وأتذكر أحداثاً كثيرة مضت..

بعضها بدا لى شراً خفت منه، وبعضها كان لغزاً حرت في فهمه..

أحداث مفاجئة صدمتنى وتركتنى مترنحاً..

وأحداث قاهرة أفقدتنى القدرة على المقاومة..

ولكنى أمام كل الأحداث.. أؤمن يا سيدى..

أؤمن بأن كل الأشياء تعمل معاً للخير..

وأن يدك القديرة تنسج منها ثوب بر ليكسونى..

تصنع بها شيئاً عظيماً بداخلى..

نضجاً في روحى وقوة في نفسى..

لذلك أشكرك حتى وأنا بعد لم أفهم كل الفهم..

أشكرك وأنا بعد لا أرى الخير الكامن في طيات الأحداث..

أشكرك لأنى أؤمن يا سيدى.. بمحبتك الفائقة من نحوى.

❑❑❑

بين عامين أقف.. وأرقب عاماً يأتينى من رحم الغيب..

لا أدرى ما يحمله لى.. ولا أعلم ما يصادفنى فيه..

أشعر بأنى ضئيل الحجم جداً أمام قوى الغيب..

وإنى صغير جداً أمام المجهول..

قلبى يغشى عليه من خوف الآتى على المسكونة..

كوارث، مجاعات، أوبئة، حروب..

أصابع رديئة تتلاعب بمصير الشعوب..

إبليس به غضب عظيم لأنه يعلم أن له زماناً يسيراً بعد..

لكنى أمام كل ما هو آتٍ.. أؤمن يا سيدى..

أؤمن بأنك معى كل الأيام إلى انقضاء الدهر..

أؤمن بأنك لن تسمح لى إلا بما هو خير..

لذلك أنا أتشبث بك يوماً فيوماً..

وأحتمى في ستر حماك لحظة فلحظة...

فأنا لا أستطيع أن أستقبل هذا العام إلا مختبئاً فيك..

احفظ خطواتى من الزلق، واحفظ روحى من الخطأ..

في كل أيامى الآتية.

❑❑❑

إن إيمانى بك يا سيدى هو طوق النجاة الوحيد في خضم هذه الحياة..

إنه صخرة خلاصى وسط الأمواج المتلاطمة..

إنه الحصن الذى بـه أحتمى من كل أعدائى.

أؤمن يا سيدى، فأعن عدم إيمانى.

- ١١ - لنستقبل العام الجديد بالصلاة

لم يُقدَّر لكثيرين في كل العصور الماضية أن يعاصروا حدثاً مثل الذى نعاصره اليوم، وهو استقبال ليس عام جديد فقط ولا حتى قرن جديد بل ألفية جديدة، فهل تستدعى تلك المناسبة الخاصة منا نحن المؤمنين رد فعل خاصاً؟

المؤمنون في كل مكان في العالم قرروا أن يستقبلوا العام الجديد وهم جاثون على ركبهم، إن لم يكن في شركة مع إخوة آخرين فوحدهم مع الرب، وبينما المجتمع يحيى المناسبة بالألعاب النارية وطلقات الرصاص أو حتى بالرقص واحتساء الخمور فهؤلاء الحكماء اختاروا أن يقابلوا العام الجديد وهم في شركة مع يسوع، فهذا اليوم بالنسبة لهم فرصة لكى يضعوا حجر معونة آخر في طريق حياتهم أثناء سفرهم نحو الأبدية، وهو فرصة لكى يقدموا شكراً تجاه كل الماضى وإيماناً تجاه المستقبل، بل هو فرصة ليتذكروا عدة حقائق أساسية.

رجاء

مجيء ربنا يسوع المسيح الثانى صار الآن أقرب مما كان بحوالى ألفى عام!! هل هذا الرجاء حى ومشرق في داخل قلوبنا؟ باعتبارنا أبناء نهار، لذلك لا ينبغى أن ننام كالباقين بل لنسهر ونصح (١ تس ٥:٥، ٦) لذلك استيقظ أيها المؤمن النائم، اسهر وصلِ لئلا يأتى عليك هذا اليوم بغتة (لو ٢١:٣٤).

بنيان

في هذه الأيام نحن ننظر حولنا بفزع، فنحن نعيش في ساعة فساد أخلاقى رهيب وتفتت لكل الروابط الاجتماعية، لكن مجداً للرب فهذا العالم ليس بيتنا، إننا ننتمى لعالم آخر مكون من أناس من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة (رؤ ٥:٩) إننا ننتمى إلى بنيان مجيد هو الكنيسة التى يبنيها الله منذ ألفى عام رغم مقاومة العالم وأرواح الشر، كم انسكب الدم والعرق والدموع لأجل بنيان هذه الكنيسة، وفي يوم قريب سيكمل البنيان والعروس المحبوبة في ثيابها البيضاء المغسولة بالدم سوف تُقدَّم إلى العريس السماوى لتملك بجواره.

طوال الألفى عام الماضية لع العديد من القديسين العظام الذين ساهموا بسهم وافر في بنيان هذه الكنيسة، فرغم أن الله هو البانى الحقيقى إلا أنه يستخدم قلوب وأيادى بشرية لإتمام البناء، هؤلاء القديسون بنوا باستخدام الذهب والفضة والحجارة الكريمة، ولذلك فبنيانهم سيثبت ويمجد الله، هناك آخرون بنوا باستخدام الخشب والعشب والقش وهذا البنيان لن يثبت بل سيحترق ويتلاشى (١كو ٣:١٢).

نحن نشترك في رحلة بنيان الكنيسة بسنوات قليلة جداً هى فترة وجودنا على الأرض، فيا ترى بماذا نساهم في هذا البنيان؟ دعونا ننتبه إلى ما ننفق فيه حياتنا القصيرة، ليساعدنا الله لكى تكون أولوية حياتنا أن نساهم في بنيان الكنيسة، لقد أعطى يسوع كل حياته لأجل هذه الكنيسة فبلاشك أنها تستحق أن نعيش لأجلها، كل إنسان ينفق حياته لأجل هدف ما، لذلك فمن التعقل أن ننفق حياتنا لأجل هدف سيدوم طوال الأبدية.

التزام

إذا كانت الساعة التى نعيشها الآن هى ساعة فساد وشر كثير فهذا يضعنا تحت التزام بأن نجاهد لكى نحفظ حياتنا مقدسة وبلا لوم، نحن تحت التزام بأن نتمسك أكثر بكلمة الله ونسير بانتباه في طرقه المستقيمة التى رسمها لنا في كلمته، حتى وإن باتت هذه الطرق «موضة قديمة» بالنسبة لعالمنا المعاصر إلا أننا ملتزمون بأن نبنى أنفسنا وكنائسنا على أساس كلمة الله الثابتة وليس على رمال أفكار الناس.

ينبغى ألا نحب العالم ولا الأشياء التى في العالم، أبواب قلوبنا وكنائسنا ينبغى أن توصد أمام طرق العالم التى تغذى الجسد العتيق والذات القبيحة، ينبغى أن ترفع عالياً راية الصليب الذى به قد صُلب العالم لنا ونحن للعالم، قد تكون هذه الراية ليست جذابة بالنسبة للكثيرين لكن الصليب والدم المسفوك عليه ثمين جداً بالنسبة لنا نحن الذين وجدنا به دخولاً إلى ملكوت السموات.

صلاة

دعونا نطالب الله بوعده بأن يسكب من روحه على كل بشر في تلك الأيام الأخيرة، ودعونا بالإيمان والصلاة نعدُّ الطريق لهذا السكيب، مازال هناك حصاد كثير ينتظر مَنْ يجمعه، وأنا أؤمن أن الله سيتحرك بروحه في وسط شعبه بصورة مجيدة في الأيام القادمة، فدعونا نصلى لأجل هذا.

أحبائى، دعونا نستقبل العام والقرن والألفية الجديدة ونحن على ركبنا، ليكن رد فعلنا تجاه هذه المناسبة هو أن نقوى إيماننا في الله ونضع قلوبنا أمامه، طالبين عمله في نفوسنا وإعدادنا لسكيبه وملئه، ودعونا نتشجع جداً فمهما كانت المخاوف التى يتوقعها العالم في الأيام القادمة فالله نفسه هو أماننا وكفايتنا، هللويا!!

- ١٢ -

الأمانة في الصلاة

الحضارة المصطنعة المتكلفة التى نعيش في ظلها اليوم قد أثّرت بشدة على عنصر جوهرى جداً في صلواتنا، أعنى به الأمانة والبساطة في التعبير عما نشعر به، فعندما نخاطب الله في الصلاة تجدنا نقول له ما نعتقد أننا ينبغى أن نقوله وليس ما نشعر به فعلاً، إننا نصلى بما نعتقد أنه صواب وليس بما هو حقيقى في حياتنا، ولذلك فمعظم صلواتنا تكون أبعد ما يكون عن واقعنا الحقيقى، وهذه هى عدم الأمانة بعينها.

تكلم بصراحة !!

الله يريدنا أن نتكلم معه بصراحة كاملة، إنه يسمح لنا أن نقول له كل ما نشعر به في دواخلنا حتى لو كان ما نشعر به يبدو سيئاً وغير معقول، لقد قال المرنم قديماً «أقول لله صخرتى: لماذا نسيتنى؟!» (مز ٤٢: ٩) هذا السؤال يبدو - كتابياً - غير منطقى وغير مقبول، ولكنه موجود في داخل مشاعر المرنم، ولو كان قد قال «يارب، أنت لا يمكن أن تنسى أى شىء، وبالتالى أنت لم تنسنى، لقد نقشتَ اسمى على كفيك... الخ» لكانت كلماته هذه أكثر قبولاً وصحة ولكنها ستكون بعيدة تماماً عما يشعر به فعلاً!! ولقد فضّل أن يقول كلمات غير مقبولة ولكنها أمينة على أن يقول كلمات تحظى بقبول السامعين ولكنها غير أمينة!!

وفي إحدى المرات فشل إرميا في فهم معاملات الله بصورة صحيحة فصاح في شبه غضب «آه يا سيد الرب، حقاً إنك خداعاً خادعت هذا الشعب وأورشليم قائلاً يكون لكم سلام وقد بلغ السيف النفس» (إر ٤: ١٠) يا لها من كلمات جارحة تقال لذاك الذى هو الحق والصدق الكامل!! لكن النبى كان يتكلم بما يشعر به، والرب لم يسامحه فقط بل أعطاه فهماً أعمق لمعاملاته!!

نحن نحتاج إلى الصراحة في الصلاة حتى لو وصل الأمر لأن نقول كلمات جافة غير منمقة، فعندما تجد نفسك نافراً من الصلاة تقدّم إلى الله وقل له هذا بكل صراحة، لو فشلت في فهم معاملاته معك وأصابك الألم والحزن فلتعبِّر عن هذه المشاعر بكل وضوح وبدون كلمات رقيقة متكلفة، قد ينزعج بعض الإخوة المحافظين من كلماتك لكن هذا لا يعنى أى شىء!! إن الله يحب النفس الصريحة حتى لو أخطأت بسبب الجهل وأفرطت بكلمات جافة، فالرب عنده علاج للجهل ولكن ليس عنده علاج لعدم الأمانة!!

حضارة التصنّع

الحضارة التي نعيشها اليوم تعتمد على فن التصنّع وإظهار عكس ما في دواخلنا، والإنسان المتحضر هو الذى يستطيع أن يخفى مواقفه الحقيقية ويتعامل بابتسامة صفراء وكلمات معسولة، لقد أصبح التصنع داء يسرى في دمائنا ويسيطر على أفكارنا ويتحكم في علاقاتنا أكثر مما نتصور، لقد ظهرت في الآونة الأخيرة عدة كتب تتحدث عن فن العلاقات الاجتماعية وكيفية التعامل مع الآخرين في العمل والمنزل، ولقد دُهشت عندما وجدت أن فحوى هذه الكتب هو الخداع والأسلوب الذى تنتهجه هو كيفية استخدام المداهنة والرياء للوصول إلى الغايات المنشودة!! وهذه الكتب تلقى رواجاً هائلاً في الأسواق وتباع منها ملايين النسخ، وهذا دليل على أنها تقول ما يريد الناس أن يسمعوه!!

الرغبة في أن تصنع لنفسك انطباعاً حسناً لدى الآخرين أصبح هو المحرك الأول لكل تصرفات الإنسان، إن الإنسان يتصرف ويتكلم ويظهر بالمظهر الذى يلقى القبول والاستحسان من الآخرين، حتى لو كان هذا المظهر يخالف تماماً ما يدور في داخل الإنسان!! لا مانع أن يجول بداخلك الغضب والحقد والحسد طالما ستظل محتفظاً بابتسامتك وبكلماتك الرقيقة المعسولة!! لقد أصبح الإنسان يخفى حقيقته القبيحة تحت مظهر براق، مثل بقعة الزيت اللامعة التى تطفو على سطح بركة آسنة مملوءة حمأة وطيناً!! وأصبح الوقت الوحيد الذى يُعبِّر فيه بعض الناس عن مكنونات نفوسهم الحقيقية هو عندما يُصابون بالجنون!! إن اللطف المسيحى النقى لم يعد موجوداً وحل محله لطف مصطنع أجوف، «اتيكيت» مفتعل فارغ من أى مضمون.

وإذا كان التصنع قد تحكم في كل ما يقوله الإنسان ويفعله فلا غرابة أنه قد صار يتحكم في صلواتنا أيضاً، حتى أصبحنا نخاطب الله بكلمات رقيقة ولكنها مزيفة لا تعكس حقيقة واقعنا الذى نعيشه.

ارجعوا ... كالأطفال !!

مازال الرب يضع أمامنا الطفل الصغير البرىء كالنموذج الأمثل لورثة الملكوت، فالطفل صريح بطبعه لا يعرف أن يصطنع شيئاً، إنه إذا تألم بكى وإذا فرح ابتسم، إنه لا يعرف قط أن يصطنع البكاء وهو سعيد ولا أن يضحك وهو متألم، فهلا رجعنا كالأطفال في بساطة وصراحة تعبيرهم عن أنفسهم؟!!

الصلاة ليست بديلاً للطاعة

- ١٣ -

هل تلاحظون كيف ازدادت الصلوات لأجل النهضة في الآونة الأخيرة؟ وهل لاحظتم أيضاً كيف أن الاستجابات قليلة جداً؟! فبالنظر لحجم الصلوات التى تُرفع في هذه الأيام نظن أن أنهار النهضة ينبغى أن تغمر كل الأرض بالبركات، لكن للأسف هذا لا يحدث بالحجم الذى نتوقعه، ونحن لا ينبغى أن نفشل بسبب ضعف الاستجابة بل ينبغى أن نسعى لنكتشف السبب وراء عدم الاستجابة، فلكل شىء في ملكوت الله سبب والعالم الروحى تحكمه قوانين ثابتة لا تتغير، وعدم استجابة الله لصلواتنا لابد أن يكون وراءه سبب. وقد يكون هذا السبب عميقاً لا يسهل اكتشافه ولكنه أيضاً لا يستحيل اكتشافه.

صلاة بدون طاعة

أنا أعتقد أن مشكلتنا تكمن في أننا نحاول أن نستخدم الصلاة بديلاً للطاعة، فالكثير من الكنائس التى تصلى طلباً للنهضة تسلك مسلكاً لا يتفق مع كلمة الله، فهذه كنيسة تخضع لضغط المجتمع وتساير التيارات الحديثة التى تحملها بعيداً عن نموذج الكنيسة في العهد الجديد، وعندما يلاحظ الخدام أن القوة الروحية بدأت تتسرب خارج كنائسهم يبدأون في البحث عن علاج، كيف يحصلون على القوة الروحية التى يحتاجون إليها أشد الاحتياج؟ كيف يستحضرون أنهار الانتعاش لشعبهم المغشى عليه؟!

والإجابة تكون دائماً حاضرة، أنها بلا شك «الصلاة»! فالكتب الروحية تقول إن الحل هو «الصلاة»، ورجال النهضات يؤكدون أن الحل هو «الصلاة»، ويبدأ صدى هذه الكلمة يتردد من كل الجهات، وتزداد النغمة ارتفاعاً حتى تصبح زئيراً: «الصلاة»!! وهكذا يبدأ الخادم يدعو شعبه للصلاة، طوال الليل والنهار يستعطفون الله لكى يرحمهم ويرسل نهضة على شعبه، ويبدأ طوفان المشاعر والحماس يرتفع حتى نظن لوهلة أن النهضة باتت على الأبواب، ولكن الوقت يمر والنهضة لا تأتى، وتبدأ الرغبة في الصلاة تتناقص، وحالاً تعود الكنيسة إلى الوضع الذى كانت عليه من قبل بالإضافة إلى قدر لا بأس به من التبلد واللامبالاة!! أين يكمن الخطأ في هذا السيناريو المتكرر؟! إنه في محاولة الصلاة بدون طاعة.

هوذا الاستماع أفضل من الذبيحة

السبب ببساطة هو أن الجميع ـ الخدام والشعب ـ لم يبذلوا أقل طاقة لإطاعة كلمة الله وتصحيح مسارهم ليتفق مع مشيئة الله، لقد ظنوا أن احتياجهم الوحيد هو الصلاة بينما الحقيقة أنهم في حاجة إلى طاعة الله في جوانب كثيرة من حياتهم، والصلاة لن تكون أبداً بديلاً عن الطاعة، وإلهنا القدوس لا يقبل أية تقدمة من شعبه إلا إذا كانت مغلّفة بالطاعة، لكن أن نصلى لأجل النهضة بينما نحن نهمل بل قل نستهين بوصايا الكتاب فما هذا إلا اضاعة للوقت والجهد بلا طائل.

عندما نقبل المسيح مخلّصاً لنا تصبح كل حياتنا ملكاً له، وتصبح كل حياتنا تحت التزام بالطاعة لشخصه، ويصبح حق المسيح في حياتنا هو الحق الوحيد المستوجب كل طاعة، وكل حق أو سلطان كان يستوجب طاعتنا من قبل يتراجع ويصبح خاضعاً لحق المسيح وسلطانه في الحياة. إن ارتباطنا بالمسيح يحررنا من طاعتنا لسلطان الخطية والموت ولكنه في نفس الوقت يضعنا تحت التزام بالطاعة لسلطان الله ووصاياه.

هذا الالتزام بالطاعة لكلمة الله ووصاياه لم يعد ظاهراً في كنائسنا اليوم، فالناس لا تحب الحديث عن الالتزام والمسئولية، والخدام أيضاً!! ولذلك يسود الضعف كنائسنا ومهما حاولنا أن نصلى بدون أن نتعلم الطاعة فإن كل صلواتنا ستذهب أدراج الرياح.

اوامر وليست تحريضات

انظر إلى الرسائل في العهد الجديد ولاحظ كيف أنها تفرد مساحات كبيرة للوصايا التى تمس السلوك العملى للمؤمنين، هذه الوصايا عكف المفسرون على تسميتها «تحريضات»، وقاموا بتقسيم الرسائل إلى أجزاء «تعليمية» وأخرى «تحريضية»، وهكذا أراحوا أنفسهم وأراحونا من أى التزام للطاعة، فالأجزاء التعليمية لا تتطلب منا شيئاً سوى أن نؤمن بها بأذهاننا، والأجزاء التى يسمونها «تحريضية» تبدو من اسمها أنها غير ملزمة، فهى تبدو أقرب إلى النصائح التى قد نأخذ بها أو نهملها، وهذا خطأ مميت!! فهذه الوصايا ينبغى أن نقبلها كأوامر واجبة الطاعة صادرة من رأس الكنيسة نفسه على لسان الرسل، إنها ليست «نصائح» أو «تحريضات» بل «أوامر» واجبة التنفيذ.

لو كنا نريد بركة الله علينا فينبغى أن نبدأ الطاعة، الصلاة ستكون مؤثرة عندما نكف عن استخدامها كبديل للطاعة، لا تحاول أن تجعل الله يقبل صلاتك بدلاً من طاعتك فأنت لا تخدع إلا نفسك عندما تحاول أن تفعل ذلك.

-١٤-

الاستجابة بعد منتصف الليل!!

في بعض أوساط المؤمنين المهتمين بالنهضة والانتعاش تتردد مقولة تقول: «إن استجابة الله بالبركة تأتي دائماً بعد منتصف الليل»!! والذى دعاهم لهذا القول هو ملاحظتهم أن معظم رجال الله الذين نالوا من الرب استجابات عظيمة وبركات كبيرة لحياتهم ولكنائسهم كانوا دائماً يسهرون في صلواتهم إلى ما بعد منتصف الليل.

وإن كانت هذه الملاحظة صحيحة إلى حد بعيد وتُشير إلى حقيقة مهمة إلا أننا ينبغى أن نأخذها على عواهنها لأن البعض قد يفهمها بشكل خاطيء.

فلو فهمنا بأن معناها هو أن الرب لا يستمع إلى صلواتنا التى نرفعها في أثناء النهار فهذا بلا شك خطأ، ولو ظننا أنها تعنى أن الصلاة التى نرفعها ونحن مُتعَبين ومُرهَقين تكون لها قوة أعظم من الصلاة التى نُقدمها عندما نكون مستريحين ومنتعشين فهذا أيضاً خطأ. إن الله ليس قاسياً حتى يحول صلاتنا إلى عملية كفارية مؤلمة أو يستمتع برؤيتنا نُعاقب أنفسنا بالتشفع!!

الإرادة الجادة

لكن الحق الموجود في هذه العبارة هو أن البركة الروحية تأتى فقط للقوم الذين يريدونها بإصرار ومواظبة وإرادة جادة حتى إنهم على استعداد لانتظارها إلى ما بعد منتصف الليل، أما الذين لا يُثابرون في طلبتهم ويُفضِّلون راحة الجسد عن انتظار الروح فهؤلاء عادة لا ينالون شيئاً، إن الله قد يتأنى في استجابته حتى وقت متأخر ليس لأن الليل له فضل في حد ذاته بل لأن الله يحب أن يمتحن مدى جدية إرادتنا.

إن كل إنسان هو مقدَّس ومبارك بالقدر الذى يريده تماماً، قد لا يكون بالقدر الذى «يتمناه» لكنه بكل تأكيد بالقدر الذى «يريده» فعلاً!! كثيرون يُظهرون أشواقاً ملتهبة ورغبات ضخمة ويشتكون أن الله لا يستجيب لهم بحسب أشواقهم الكبيرة، لكن الله لا يتعامل مع أشواق عاطفية سرعان ما تخبو أو تتحول إلى أغراض أخرى، إن الله يتعامل مع إرادتنا الجادة التى تمتلك فينا كل القلب حتى لا نستطيع أن نحيا بدونها، وهذه الإرادة الجادة تكون عادة أقل بكثير من حجم أشواقنا السطحية!! **إن الله يستجيب لنا بحسب ما هو موجود في إرادتنا وليس ما هو موجود في خيالنا أو مشاعرنا.**

من السهل أن «نرغب» في البركة و «نشتاق» للحياة المنتصرة لكنه شيء مختلف تماماً أن نسعى في طريقها، شيء مختلف تماماً أن نأخذ صليبنا عملياً ونتسلق هضبة «إنكار الذات» القاسية المظلمة لنُصلب هناك. هذا يحتاج إلى إرادة جادة مكرَّسة، هنا نجد أن كثيرين يُدعَون وقليلين يُنتخَبون، وفي مقابل كل واحد يعبر عملياً إلى أرض الموعد يوجد آلاف يقفون على الشاطيء يتطلعون بشوق عبر الأردن ولكنهم لا يجرؤون على عبوره ويعودون أدراجهم ليستأنفوا تيههم في البرية!!

لقد تكلم ربنا له المجد عن هذا الحق عندما قال «طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون» (مت ٥: ٦) إن الجوع والعطش من الغرائز العميقة جداً في نفس الإنسان وليست مجرد مشاعر سطحية، وعندما يزيد الجوع أو العطش في داخل الإنسان يتحول إلى ألم جسدى حقيقى وقد يؤدى إلى الموت!! لقد اختبر عدد لا يُحصى من رجال الله أنه عندما تحولت طلبتهم إلى ألم حقيقى يُمزق أعماقهم نالوا الاستجابة!! **إن الله قد يتأنى علينا حتى تتحول جميع رغباتنا إلى رغبة واحدة!!** ينتظر حتى نكف عن طموحاتنا الجسدية ونطأ الشبل والثعبان الموجودين بداخلنا، وحتى ندوس تنين الذات المتشعبة في أعماقنا، وحتى يصبح الله هو طلبتنا ومنتهى رغباتنا، عندئذ وعندئذ فقط يستجيب لنا الله بملء البركة.

أحياناً نرى هذا يحدث فيما بيننا، أحد الإخوة تتضخم أشواقه الروحية غير المشبعة وتصبح كبيرة جداً حتى إنها تطغى على كل اهتماماته الأخرى، يبدأ يبحث في الكنائس على شبع لجوعه فيصطدم بأوضاع تقليدية باردة لا تروى غليله، وإرادته الجادة في السعى نحو البركة تجعله يرفض التأقلم على الصلوات التقليدية الجوفاء التى يُقدمها الإخوة «المجمَّدين» الذين على استعداد أن يقولوا نفس الكلام أسبوع بعد أسبوع وسنة بعد سنة بدون أى تغيير، إن ألم الرغبة الجائعة بداخله لا تسمح له بترف هذه العبادة الروتينية!! سيبدأ يصرخ من الألم صرخات غير مألوفة لإخوته، وخروجه عن المألوف سيُسبب له معاناة كثيرة وسيقوم الإخوة المتقدمون بتوبيخه، لكنه مثل الأعمى الذى كان يسعى خلف نور عينيه سيصرخ أكثر كثيراً!! وعندما تصل طلبته إلى كمالها ستأتى إجابة الله ولو بعد منتصف الليل!!

لا يوجد فضل خاص للصلاة في الساعات المتأخرة من الليل، لكنها من الناحية الأخرى قد تُشير إلى ذهن يقظ وإرادة جادة تصر أن تصلى صلاة تتعدى المألوف وتُطالب بغير العادى، واستجابة الله لن تتأخر كثيراً على مثل هذه الصلوات المرفوعة بألم في جوف الليل!!

إيل بيت إيل ١٥

"وبنى هناك مذبحاً ودعا المكان إيل بيت إيل" (تك ٣٥: ٧)

في بداية رحلة يعقوب في البرية رأى سلماً منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء والرب واقفاً عليها، فدعا ذلك المكان «بيت إيل» الذى يعنى «بيت الله».

وبعد سنوات عديدة، بعدما تألم وعانى وأخطأ وتاب، بعدما اكتشف زيف كل الأشياء الأرضية وعدم جدواها، وبعدما هزمه الله في فنيئيل وباركه هناك، نراه يعود إلى نفس المكان ويُعيد تسميته «إيل بيت إيل» الذى يعنى «الله الموجود في بيت إيل»، ورغم أن المكان ظل يُعرف تاريخياً باسم «بيت إيل» لكنه ظل في قلب يعقوب يُدعى «إيل بيت إيل»!!

وهذا التغيير له مغزى، لقد تحوَّل انتباه يعقوب من المكان إلى الشخص المبارك الذى قابله في ذلك المكان، من البيت إلى الساكن فيه، من الاختبار إلى مصدر المجد في الاختبار، من المعجزة إلى صاحب المعجزة، لقد صار الله ذاته هو مركز الاهتمام، ويا له من تحوّل مبارك!!

مؤمنون بيت إيل !!

مؤمنون كثيرون لا يتقدمون أبعد من «بيت إيل»، لا يصلون أبداً إلى اختبار «إيل بيت إيل»!! الله نفسه ليس هو مركز اهتمامهم بل «بيته»، وهذا البيت قد يأخذ أشكالاً مختلفة في حياة المؤمنين.

قد يكون «بيت إيل» هو «الاختبار» الذى التقينا فيه بالرب، لقد تعامل الرب معنا بشكل معيّن وفي ظروف معينة، وبمرور الوقت يتحول اهتمامنا إلى هذا الشكل الخاص من التعامل، ونحاول أن ننقله إلى الآخرين ونعممه على الكل، ونبدأ نكرز بهذا «الشكل» من الاختبار وليس بالمضمون الذى هو شخص الرب له المجد، وكم تتسبب هذه الكرازة في انقسامات وتشتيت بين المؤمنين الذين لابد أن تختلف اختباراتهم في أشكالها وإن كانت تتشابه في مضمونها، وسبب هذه المأساة أن تركيزنا واهتمامنا صار يدور حول «الاختبار» وليس حول «الرب»، حتى لو كان هذا الاختبار هو الوسيلة التى بها عرفنا الرب، حتى لو كان هو «بيت إيل» الذى فيه رأينا الله!!

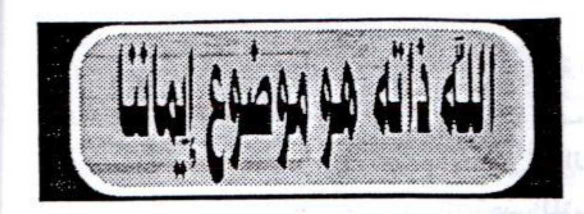
أحياناً أخرى يكون «بيت إيل» هو الكنيسة أو الطائفة التى عرفنا فيها الرب، ودون أن ندرى ينصبُّ حبنا وولاؤنا على هذه الجماعة من المؤمنين، ونبدأ ندور في فلكهم وننادى بتعاليمهم وأسلوبهم الخاص في العبادة، ونقاوم أى تعليم أو أسلوب عبادة يأتينا من جماعة أخرى، بل ونتجنَّب المؤمنين الذين لا ينتمون إلى كنيستنا أو طائفتنا، ويا لها من خسارة لجسد المسيح!! والسبب هو أننا لم نعد نهتم بالرب نفسه بل بالجماعة التى عرفنا فيها الرب.

غريزة طبيعية في الإنسان أن ينتمى إلى جماعة خاصة ويسعى بكل قوته أن يُدافع عنها ويعزِّز نموها ونجاحها، وبهذا المفهوم يكون انتماء المؤمن إلى جماعة معيّنة أمراً طبيعياً ومطلوباً، لكن عندما يصبح انتماؤنا لهذه الجماعة أعظم من انتمائنا للرب فعندئذ يكون أمراً مرفوضاً!! لم يكن المقصود من الكنيسة أن تكون بديلاً عن الله ولن تستطيع أن تكون!! كل كنيسة ينبغى أن تعتنق مبدأ «إيل بيت إيل» وتحفظ هذا الترتيب الصحيح في اهتمام أعضائها: الله أولاً ثم الكنيسة - التى هى بيته ثانياً.

بل أن «المعرفة» الروحية قد تكون هى «بيت إيل» في حياتنا، رغم أنها شيء رائع لأنها تبحث وتدرس في أمور الله لكن العلاقة الحية المباشرة مع الله ذاته قد تتقهقر في ظل الاهتمام بالدراسات الروحية، ويستعاض عنها بالمعرفة الذهنية والدخول في متاهات الدراسات والخلافات المذهبية والعقائدية، ورغم أن الكلام كله يدور حول الله لكن العلاقة الحية مع الله تصير مفقودة!! وتصبح «المعرفة الروحية» هى «بيت إيل» الذى جذب الاهتمام أكثر من الله نفسه!!

أى واسطة من وسائط النعمة هى «بيت» فقط، وعندما يستخدمها الله كواسطة للتعامل معنا تصبح «بيت إيل»، ولكن لنحذر من أن تنزل عيوننا على هذه الواسطة ونهتم بها لئلا تصير هى نفسها عائقاً يمنع مواصلة السعى مع الله، بل لتظل عيوننا مرفوعة إلى الله وحده وعندئذ ننتقل إلى اختبار «إيل بيت إيل» إذ يظل الله وحده محور اهتمامنا وحبنا.

إننا نستطيع أن نعرف مدى نضوجنا الروحى إذا عرفنا محور اهتمام قلوبنا: هل هو «بيت إيل» أم «إيل بيت إيل»؟! هل هو كنيستى أم ربى؟ هل هو خدمتى أم إلهى؟ هل هو عقيدتى أم المسيح؟ دعونا نتوسل إلى إلهنا لكى يُصحح اتجاهاتنا وينقلنا من «بيت إيل» إلى «إيل بيت إيل».



إن موضوع إيماننا هو الله ذاته وليست وعوده، إننا نؤمن بشخص حي وليس بكلمات مهما كانت صادقة، إن مَنْ يؤمن بكلمات قالها الله دون أن تكون له معرفة خاصة بالله ذاته لابد أن يأتي وقت فيه يهتز إيمانه ويسقط، وذلك عندما تسير الأمور في مسار غير متوقع أو عندما يعجز عن فهم تعامل ما من تعاملات الله معه، عندئذ يدخله الشك في صلاح الله ومحبته وينهار إيمانه.

أما المؤمن الحقيقي فهو يثق في شخص الله ذاته، إنه يقترب من الله ليعرفه ويُدرك صفاته، وعندئذ يضع ثقته في تلك الصفات الإلهية التي لا يمكن أن تتغير أو تتزعزع، إن إيمانه ليس مؤسساً على مفهومه الخاص لكلمات الله أو توقعه الشخصي لتحقيق الله لوعوده، ولذلك عندما تسير الأحداث في مسار يبدو أنه مضاد لكلمات الله يبقى المؤمن ثابتاً لأن إيمانه مؤسس على الله ذاته وليس على الكلمات، فالله ثابت لا يتغير أما كلماته فقد يتغير مفهومها من شخص إلى آخر، وقد يتأخر تحقيقها لوقت طال أو قصر، إنه يثق في صدق الله وأمانته مهما كانت الأحداث غير مفهومة والرياح غير مواتية.

المؤمن الذي عرف صفات الله وبنى إيمانه عليها يبقى إيمانه ثابتاً لأن صفات الله ثابتة لا تتغير، وهذا المؤمن لا يطلب تفسيراً لتعاملات الله قبل أن يؤمن بل يؤمن أولاً ثم ينتظر التفسير، الإنسان الذي يريد أن يفهم كل معاملات الله قبل أن يخطو خطوة في طريق الإيمان هو شخص لم يعرف الله ولم يتعلم كيف يبنى إيمانه على صفات الله غير المتغيرة.

لقد كان الرب يسوع هو المثال الكامل الذي يتكل على صفات الله رغم الأحداث المضادة، ففي أثناء آلامه الرهيبة على الصليب كان مرفوضاً ومنبوذاً ووحيداً، لكنه في وسط كل هذه الآلام، وفي وسط كل هذه العوامل المضادة وجد راحته في الاتكال على صفة ثابتة في شخص الله، ألا وهي قداسته. لذلك فهو يسلم لقداسة الله حتى تُجرى كل مشيئته والتي سيظهر في النهاية أنها كانت كلية الصلاح والعدل.

اسمع المرنم وهو يقول:

«ويتكل عليك العارفون اسمك» (مز ٩:١٠)

اسم الله هو المعبِّر عن صفاته، وما يقوله كاتب المزمور هو أن هؤلاء الذين عرفوا الله كما هو في طبيعته هم فقط القادرون على الاتكال عليه بإيمان لا يتزعزع، وهذا الإيمان ليس معجزياً أو مضاداً للطبيعة، بل هو تلقائي وطبيعي للغاية، لأن الإنسان بطبيعته يضع ثقته في الشخص ذي الصفات الحسنة الثابتة، فكم بالحرى هؤلاء الذين عرفوا صفات الله واختبروا مدى صلاحها وثباتها، إن اتكالهم على هذه الصفات يكون عندئذ أمراً طبيعياً وتلقائياً.

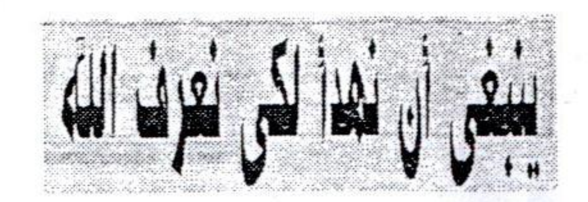
ما هية الإيمان

الإيمان ليس هو القدرة على إقناع أنفسنا بأن الأسود أبيض والأبيض أسود، ولا هو أن نرغب في شيء ونتوقعه ونلح في طلبه حتى يتحقق، إن الإيمان ببساطة هو أن نجعل أذهاننا تتوافق مع حق الله، وأن نجعل توقعاتنا تنسجم مع صفات الله، الإيمان هو أن نقترب من الله لنعرفه ونختبر صفاته ثم نضبط كياننا كله ليتوافق مع هذه المعرفة.

إن الله ثابت دائماً وكل أعماله تتفق تماماً مع طبيعته القدوسة الكاملة، والله لن يتغير أو يتشكل لكي يوافق إيماننا عنه، بل إيماننا هو الذي ينبغي أن يتغير ويتشكل لكي يوافق الله كما هو في طبيعته، إن اسم الله هو «أهيه الذي أهيه» أي «أنا هو الذي أنا هو» الموجود الدائم الوجود والثابت في صفاته بدون تغيير أو ظل دوران، وطوبى للنفس التي تعلمت أن تبنى إيمانها على ذات الله وصفاته الراسخة، إنها نفس تنعم بالسلام وهدوء الذهن حتى في وسط الاضطراب حين تبدو كل الرياح مضادة.

لا تحاول أن تستخرج الوعود من كلمة الله وترغم نفسك على الإيمان بها، فهذا ليس هو الإيمان، أنت تحتاج أن تقترب من شخص الله ذاته، ت تحتاج أن تعرف صفاته وتختبرها، عندئذ سيكون من السهل جداً أن تلقى بكل اتكالك على شخصه العظيم، فكل الذين عرفوا اسمه اتكلوا عليه، وكل مَنْ اتكل عليه لم يخزَ

- ١٧ -



"كفوا (اهدأوا واستكينوا) واعلموا أني أنا الله" (مز ٤٦ : ١٠)

ينبغي أن نهدأ ونستكين أمام الله لفترة ما كل يوم وإلا فاليوم كله سيضيع، فنحن لا نستطيع أن نعرف الله إلا أثناء السكون، هذا ما يعلّمه الكتاب المقدس وما يؤكده اختبار رجال الله في كل العصور، فالمعرفة الحقيقية لله تنشأ من قلب السكون.

ولا يوجد عصر في كل التاريخ يحتاج فيه الإنسان إلى السكون أكثر من عصرنا هذا، ولا يوجد عصر أكثر من هذا العصر من الصعب أن تجد فيه لحظة سكون واحدة، فهذا العصر يتسم بالضوضاء والصخب والسعي الدءوب الذي لا يهدأ، هياج واندفاع في كل مكان، في البيت والعمل والسياسة والاقتصاد...، والإنسان مضطر أن يتوافق مع عصره ويكتسب طبيعة ومظهر الوقت الذي يعيش فيه ويتعلم كيف يرقص برشاقة على وقع خطوات زمانه وإلا أصبح شاذاً ومنبوذاً، ولذلك تجد حياتنا قد اصطبغت بروح السرعة والضوضاء والصخب والسعي المجنون الذي لا يهدأ.

... بل الضوضاء في داخل الكنيسة !!

الكارثة الحقيقية هي أن سمة العصر قد دخلت إلى الكنيسة وصبغت حياتها وخدمتها، وهناك فكر في داخل الكنيسة الآن يقول "مادام الزمن قد تغير فلابد أن تتغير الكنيسة أيضاً معه، وينبغي أن تُطور أساليبها بحسب طبيعة العصر الذي تعيشه، لو كان الناس متعجلون ويريدون عظات لا تتجاوز عشر دقائق فدعونا نقدم لهم عظات لا تتجاوز عشر دقائق، ولو كانوا يحبون الموسيقا الصاخبة فنقدم لهم موسيقا صاخبة، وإذا كانوا يفضلون السينما فلنقدم لهم السينما، ولو كانوا يحبون القصص والفكاهات فلنملأ كلامنا بالقصص والفكاهات، دعونا نساير العصر ولنعطِ للناس ما يريدون"!!

وهكذا امتلأت الكنيسة بالضوضاء والصخب ولم يعد الإنسان يجد لحظات هدوء يستمع فيها إلى الصوت المنخفض الخفيف حتى في داخل الكنيسة!! ويل لهؤلاء الذين قاربوا بين أورشليم وسدوم وأوجدوا شبهاً بين رسالة الكنيسة ورسالة هوليود!! أهكذا لم يعد في الإمكان الرجوع إلى المراعي الخضراء ومياه الراحة التي كان الرب يقودنا إليها قديماً؟! هل نستطيع أن نرغم الله على الحديث إلينا في الريح والزلزلة لأننا فشلنا في أن نستمع إليه في الصوت المنخفض الخفيف؟!! في وسط الضوضاء قد نعرف أشياء كثيرة، قد نعرف الطب والهندسة والمحاسبة، قد نعرف كيف نعظ ونُعلّم ونُرنم، ولكننا أبداً لن نعرف الله!!

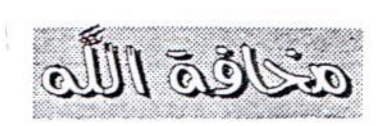
جوهر الإنسان لم يتغير

ما ينبغي أن نعرفه هو أن جوهر الإنسان لم يتغير، رغم كل هذا التطور الهائل في العلوم والتكنولوجيا إلا أن أعماق الإنسان مازالت كما هي في القديم، المدنية والحضارة ليست إلا ظواهر سطحية، طفحاً جلدياً على جلد الإنسانية!! أما نفس الإنسان فلم تتغير في أصولها واحتياجاتها الأساسية، في داخل كل منا إنسان عريان يقف خارج جنة عدن يرتجف خوفاً من القصاص ويتطلع إلى المخلص!! إن احتياج الإنسان منذ السقوط لم يتغير وإن تغير كل شيء حوله، الإنسان البدائي غير المتحضر وأستاذ الجامعة في أرقى جامعات العالم لهما نفس الاحتياج، ألا وهو الخلاص من سلطان الخطية والحصول على الحياة الأبدية والدخول إلى شركة مع الله الحقيقي.

لقد فشل بعض الخدام العصريين في فهم أن الاختبار المسيحي يحدث في داخل روح الإنسان، هناك في الداخل بعيداً عن السطح المتغير للأشياء، سلوكيات الإنسان السطحية فقط هي التي تتجاوب مع ضوضاء الحضارة المعاصرة، أما روح الإنسان فتقع في منطقة عميقة ساكنة في الداخل تنتظر كلمة حياة من الله تمنحها الحياة الجديدة، والله يتعامل مع هذه المنطقة العميقة في داخلنا، إنه يخاطب الأبدية فينا، ينادي العمق المغلّف بالسكون في أعماقنا، وإذا أردنا أن نستمع لنداء الحياة هذا فلابد أن ندخل إلى تلك المنطقة الساكنة في داخلنا، ينبغي أن نستكين ونهدأ في أرواحنا حتى نستطيع أن نستمع لصوت الله يخاطب أعماقنا، ينبغي أن ندخل إلى مخادع النفس الداخلية نغلق أبوابنا أمام ضوضاء الخارج الصاخبة لكي نستطيع أن نميز الصوت الهادئ الخفيف لذاك الذي قيل عنه "لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته" (إش ٤٢ : ٢) إننا لن نستطيع أن نستمع إلى صوته طالما نحن في "الشارع"!! لذلك ينبغي أن ندخل مخادعنا حيث السكون.

ومن المفيد أن نلاحظ أن المزمور الذي ورد فيه الأمر "كفّوا" (اهدأوا واستكينوا) هو المزمور المملوء بالضجيج والهياج: "تزحزحت الأرض.. انقلبت الجبال إلى قلب البحار.. تعج وتجيش مياهها.. تتزعزع الجبال بطموها.. تزعزعت الممالك.. عجّت الأمم.." !! وفي وسط هذا الضجيج يصبح أمر الله ضرورة حتمية وأمراً ملزماً لنا جميعاً: "كفّوا واعلموا أني أنا الله"!!

معظم الخدام الآن يرددون كالببغاء تعاليم العهد الجديد لكنهم عملياً يعتنقون فكر العالم ويصطبغون بصبغته ويواظبون على تقليد طرقه، لكن ليت الله يجد فينا بقية من أمانة تدفعنا للدخول إلى مخادعنا لنسكن أمامه ونصغي إلى صوته!!



يوجد حق إلهى في الكتاب المقدس ويؤكده الاختبار الشخصى عبر القرون، هذا الحق يمكن تلخيصه في هذه البديهية: «لا يستطيع أحد أن يختبر نعمة الله الحقيقية وهو لم يختبر مخافة الله الحقيقية».

إن أول إعلان لفداء الله للجنس البشرى قُدم للإنسان في جنة عدن حين كان خائفاً ومرتعداً ومختبئاً من محضر الله، وناموس الله أُعطى لموسى وهو يرتجف خوفاً في وسط النار والدخان ويرتعد فَرَقاً من وميض البروق وقصف الرعود، وعندما امتدت يد نعمة الله إلى زكريا الكاهن وفكّت لسانه وقع خوف على كل جيرانه، بل حتى البشارة المفرحة «على الأرض السلام وبالناس المسرة» أُعطيت لرعاة خائفين خوفاً عظيماً بسبب الحضور المفاجئ للأجناد السماوية، وهكذا نرى أنه في كل مرة كان هناك استقبال لنعمة الله كان هناك أيضاً اختبار لخوف الله.

نحتاج أن نقرأ الكتاب بعيون مفتوحة حتى نرى هذا الحق يمتد مثل الحبل المثلوث من التكوين إلى الرؤيا. فالحضور الإلهى يحمل دائماً الخوف لقلب الإنسان الخاطئ، خوفاً «فوق طبيعى» يكتنف الإنسان عند كل إستعلان لله، خوفاً ناتجاً عن مواجهة المخلوق غير المقدس لإلهه كلى القداسة، هذا الخوف لا علاقة له بالخوف الغريزى الذى نختبره كلنا عندما نتعرض للإيذاء، إن خوف الله يقع في روح الإنسان وليس في أحاسيسه وغرائزه.

خوف الله نبع كل عمل صالح

أنا لا أعتقد أن هناك عملاً صالحاً يمكن أن ينشأ من قلب لا يخاف الله، إن أى نشاط دينى لا ينبع من هذا الخوف المقدس لا يساوى شيئاً!! إن الجسد الحيوانى فينا قوى جداً ومعتد بذاته وإلى أن ينكسر هذا الجسد بالخوف أمام الله لن يعلن الله نفسه لعيون إيماننا، إلى أن يشملنا هذا الخوف المقدس لن نكون مؤهلين لاستقبال نعمة الله ومحبته، لأن نعمة الله لا تؤثر في القلب الإنسانى المعتد بذاته بل قد يكون لها نتيجة عكسية، فبشارة نعمة الله إذا قدمتها لقلب معتد بذاته فقد تثبّته أكثر في بره الذاتى.

هناك محاولات كثيرة في هذه الأيام الأخيرة لإغراء الإنسان لقبول بشارة الإنجيل، وذلك عن طريق تقديم الجانب المريح من الحياة المسيحية، خدام كثيرون يتكلمون عن نعمة الله ومحبته دون الكلام عن الخطية وموقف الله منها، وهذه محض خدعة غير مجدية،

فالإنسان لا يكون مؤهلاً لقبول نعمة الله وغفرانه إلا إذا وقع تحت إحساسه بفداحة خطيته ونجاستها، إذا لم يشعر بالخوف من محضر الله فلن يستطيع أن يطلب النعمة والغفران، **إذا لم يشعر الإنسان بمشكلته مع قلبه فلن يستطيع أن يحلّ مشكلته مع الله!!**

قايين وهابيل مثلان واضحان لهذا الحق: قايين قدّم تقدمة غير دموية لأنه افترض أن الله راضٍ عنه، بينما هابيل قدم ذبيحة دموية لأنه علم أن الله لا يمكن أن يقبله في نجاسته، قلبه الخائف من قداسة الله أوحى إليه أن يستتر نفسه بالدم، كان يعلم أنه يستحق الموت فقرر أن يختبئ في موت الذبيحة، أما قايين فلم يكن خائفاً!! كان راضياً عن نفسه ولذلك لم يطلب لها مكاناً للاختباء من قداسة الله.

التهديدات لا تصنع خوف الله

ومن الناحية الأخرى ينبغى أن نفهم جيداً أن مخافة الله لا يمكن أن نصنعها بالتهديدات، الجحيم والدينونة حقائق وينبغى أن نعظ بها بحسب الحق الكتابى ولكن لا تظن أنك تستطيع أن تخيف الشعب من الدينونة فتنشئ فيهم خوف الله، كلا، إن مخافة الرب هى أمر فوق الطبيعى لا ينشأ من التخويف والتهديد، إنك إذا أطلقت الصيحات العالية في وجه قطيع من الجداء فقد تنجح في إخافتهم ودفعهم دفعاً للدخول في حظيرة الخراف، **ولكن كل الخوف الذى في العالم لا يستطيع أن يجعل من الجداء خرافاً!!** لذلك لا تحاول أن تدفع الناس لقبول المسيح عن طريق تخويفهم من الحروب النووية والقنابل الذرية، فكل الخوف الذى في العالم لا يستطيع أن يجعل القلب المضاد لله قلباً محباً لله!!

الروح وحده يستطيع

لكى نختبر خوف الله ينبغى أن نشعر بأمرين، أولاً ينبغى أن نشعر بحالة قلبنا النجس وثانياً ينبغى أن نشعر برهبة محضر الله القدوس، لقد اختبر إشعياء هذين الأمرين، اختبر نجاسته الشخصية واختبر رهبة حضور رب الجنود، وكان الأمر أكبر من احتماله فصرخ «إنى هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين.. لأن عينىّ قد رأتا الملك رب الجنود».

ليس سوى روح الله يستطيع أن يقودنا لهذا الاختبار، فلنسلمه أنفسنا لكى يدخلنا إلى هذا الاختبار المجيد: اختبار مخافة الله. آمين.

لابد أن نتحرر من خوف الناس

«خشية الإنسان تضع شركاً» (أم ٢٩ : ٢٥)

الخوف من رأى الناس فينا ينصب لأنفسنا شركاً ويقيِّد خطواتنا ويقودنا إلى اتجاهات خاطئة ويمنعنا من عمل مشيئة الله بحرية، وخوف الناس عادة يقودنا إلى واحد من اتجاهين: **إما أن نخاف من عمل ما ينبغى أن نعمله أو نخاف ألا نعمل ما يتوقع الآخرون أن نعمله!!**

فأحياناً لا نعمل ما يريدنا الله أن نعمله لمجرد أننا نخاف من رأى الناس الذين لن يفهموا هذا العمل ولن يقبلوه منا، وأحياناً أخرى نضطر لعمل أشياء ليست في مشيئة الله لمجرد أننا نخاف ألا نعمل هذا العمل الذى يتوقع منا الآخرون عمله، وسواء لم نعمل ما ينبغى عمله أو عملنا ما لا ينبغى عمله ففى الحالتين نحن نتحرك بدافع خوف الناس وهذا الدافع ـ وما ينشأ عنه ـ مرفوض تماماً من الله.

البر المرفوض !!

هناك نوعية من البر المرفوض، وهو البر الناتج عن ارتباطنا بضمائر الآخرين!! اعترافنا باننا نتبع المسيح يخلق توقعات معينة في أذهان وضمائر المحيطين بنا، ولكى لا نعرِّض موْقفنا أمامهم للخطر نضطر أن نتصرف بحسب توقعاتهم حتى في المواقف التى لا نجد بداخلنا اقتناعاً شخصياً بالأمر، لأننا ببساطة نخاف ألا نعمل ما أصبح الناس يتوقعونه منا كمؤمنين تابعين للمسيح، ولا نستطيع أن نحتمل رفضهم إذا فشلنا في عمل ما ينتظرونه منا، وهكذا نجتهد أن نسلك بموجب ما في ضمائرهم وليس ما في ضمائرنا نحن!! **ورغم أن هذا قد يؤدى إلى سلوكيات بارة بحسب استحسان الناس إلا أنه بر مرفوض من الله، لأن دافعه ليس خوف الله بل خوف الناس!!**

السلوك بالفضيلة تحت ضغط خوف الناس ليس فضيلة على الاطلاق، العمل الصالح الذى نعمله لكى نرضى ضمائر الناس هو عمل مرفوض أمام الله لأن دافعه ليس هو الإيمان أو المحبة بل الخوف، وكل ما ليس من الإيمان فهو خطية!!

خوف الناس .. داخل الكنائس !!

كل كنيسة من كنائس الطوائف المختلفة لها اختباراتها المُصادق عليها والتى تلقى استحسان الأعضاء، ولها مفرداتها اللغوية الدينية الخاصة، بل ولها أسلوبها المتميِّز في العبادة والصلاة، وعلى المؤمن الذى يريد الانضمام إلى هذه الكنائس أن يعيش نفس الاختبارات ويتحدث بنفس المفردات بل ويُصلى ويُسبح بنفس الأسلوب المميِّز لهذه الكنائس إذا أراد أن يكون مقبولاً من أعضائها، لأنه إذا خرج عن المألوف والمعتاد سيُعانى من الرفض وهذا ما يخشاه.

نسخ متكررة !!

وخوف الناس في الكنيسة هو السبب المباشر في أن كل أعضاء الكنيسة الواحدة تجدهم نسخاً متكررة من بعضهم البعض، الخوف من الخروج عن المألوف يجعل أعضاء الكنيسة يبدون جميعاً في هيئة واحدة، الرغبة في القبول داخل دائرة المؤمنين تدمِّر الأصالة والجدَّة وتجعلنا مجرد مقلِّدين، شيئاً فشيئاً يفقد المؤمن انقياده بالروح وينقاد بحسب ضمائر أعضاء الكنيسة ويتشكل بموجب توقعاتهم، ويحزن الروح المبارك لأنه لا يجد حرية للتحرك فيما بيننا ويبدأ يغادر تخومنا، ويسقط المؤمن في شرك السلبية والجمود بعدما صارت حياته وعبادته تتم بشكل «أتوماتيك» بحسب التيار السائد حوله.

لابد أن نتحرر !!

الخطر الأعظم في خوف الناس هو أنه يحوِّل دافع الحياة والسلوك من الداخل إلى الخارج، من الله إلى الناس، بينما المؤمن الحر ينبغى أن يسلك بدافع من روح الله الساكن بداخله بغض النظر عن رأى الآخرين، لو كان هناك طريق صحيح فينبغى أن يتخذه لأنه صحيح وليس لأنه خائف من عدم اتخاذه، وإذا كان هناك خطأ فينبغى أن يتجنبه لأنه خطأ وليس لأنه خائف من رأى الآخرين.

والطريق للهروب والتحرر من خوف الناس هو أن تقدم تسليماً كاملاً لله، أحب الرب من كل قلبك، وصمم أن تطيع اقتناعاتك التى تتبلور بداخلك كنتيجة لصلاتك المتصلة ودراساتك المستمرة للكتاب المقدس، عندئذ يمكنك أن تغض الطرف عن توقعات القريبين أو انتقادات البعيدين، قد تختبر الدهشة والصدمة من إخوتك «المقيدين»، ولكن إذا واصلت طريق الحرية فقد يكتسبوا الشجاعة من مثالك ويطرحوا عنهم خوف الناس ويتقدموا ليسيروا في طريق الحرية التى حررهم بها المسيح.

- ٢٠ -

لا مكان للسحر في المسيحية الحقيقية

كل الممارسات والعقائد السحرية والوثنية تتشابه في أنها مؤسسة على ثلاثة افتراضات :

١ ـ أن الأشياء المادية الجامدة يمكن أن تحتوى على قيم معنوية أو روحية.

٢ ـ أن الله غير مسيطر تماماً على الأمور وأن قوانينه يمكن الالتفاف حولها .

٣ ـ أن هناك كائنات غير مرئية يمكن دفعها لتساعد الناس أو تضرهم لو فعلنا بعض الحركات أو تمتمنا ببعض الكلمات.

عندما كنا صغاراً نقل لنا أهلنا هذه المعتقدات السحرية التى كانوا يؤمنون بها بشدة، مثل الخوف من القيام برحلة يوم الجمعة أو الحظ السيء الذى يتبع كسر مرآة أو العبور من تحت سلم، وكنا نحاول أن نضحك على هذه المعتقدات لكنى أشك أننا استطعنا أن ننجو تماماً من تأثيرها، حتى إنى مازلت إلي هذا اليوم أشعر ولو للحظة بعدم الراحة إذا صادف إنى لمحت هلالاً من فوق كتفى الأيسر!!

قال السير جيمس فريزر إن السحر هو الإيمان الوحيد العالمى بحق، لأن كل الناس في كل العالم بدون استثناء يعتقدون بوجوده بشكل أو بآخر!!

السحر يتسرب إلى اليهودية !!

لقد حارب أنبياء العهد القديم ضد محاولات الوثنية التسلل إلى داخل الديانة اليهودية، لكن للأسف عندما أتى المسيح وجد الشعب يُعانى من عبودية الخوف الناتج عن العقائد الخرافية التى دخلت إلى الديانة اليهودية.

لقد أمر الله الشعب قديماً أن يجعل الشريعة كعصائب بين عيونهم (تث ٦:٨)، وكان المعنى المقصود هو أن تظل الشريعة ماثلة أمامهم دائماً لكى يتحفظوا للعمل بحسب ما هو مكتوب فيها، لكن عندما أتى المسيح وجد هذه الوصية تحولت إلى ممارسة وثنية إذ وجدهم «يعرّضون عصائبهم ويعظّمون أهداب ثيابهم» (مت ٢٣:٥).

والسبت الذى أعطاه الله ليكون خادماً للإنسان أصبح سيداً له، وذلك بسبب المعتقدات الوثنية التى تنسب قداسة معيّنة لأوقات معيّنة!! كذلك عادة غسل الأيادي قبل الأكل تحولت من عادة صحية إلى طقس مقدس أصبحت ممارسته أو عدم ممارسته مقياساً للتقوى!!

... وإلى المسيحية أيضاً!!

كم هو قوى ميل قلب الإنسان إلى الوثنية حتى إننا نكاد لا نجد وقتاً نجا فيه الإيمان المسيحى من الشوائب الوثنية!! رغم أن ربنا وضع أساس عبادة الله في الروح ورفض أن ينسب أية قيمة روحية للأشياء المادية إلا أننا نجد الكنيسة تعتبر مواد معيّنة أنها مقدسة، وممارسات معيّنة تنسب لها قوى روحية خاصة ومقدرة على الغفران والتبرير!! ورغم أن ربنا حذرنا من ترديد الكلام باطلاً إلا أن الكنيسة مازالت تعتقد أن كلمات معيّنة وصلوات بعينها ينبغى أن تتكرر بشكل منتظم وربما لعدد محدد من المرات!! **الكنيسة دائماً مُجرّبة بأن تنسب قوى روحية أو قيم أدبية للأشياء المادية، لأن الذهن البشرى يريد ويحب أن يفعل هذا!! لكن لنتذكر أننا بهذا نمارس نوعاً من السحر الذى يقدّس المواد، وأننا نبتعد كثيراً عن المسيحية الحقيقية!!**

المسيحية الحقيقية

الاختبار المسيحى الحقيقى هو معرفة مباشرة لله، إنه شركة لصيقة بين شخصين عاقلين: الله والمؤمن، ومجالات هذه الشركة ذهنية وأدبية وروحية، وهذه المجالات لا يمكن أن تحتويها الأشياء المادية أو تعبّر عنها، إن إتحاد النفس البشرية مع الله في المسيح هو علاقة شخصية لا يمكن أن تتأثر بأى شكل من الأشكال بالأشياء المادية سواء إيجابياً أو سلبياً.

المسيحية هى ديانة المعانى المطلقة، والمعانى لا يمتلكها أو يعبّر عنها سوى الكائنات العاقلة، لذلك لا يمكن لطقس معيّن أو صلاة محددة أو أوقات ومواسم جامدة أن تحتوى أو تعبّر عن أى معنى روحى مطلق، وإذا اعتقدنا بخلاف هذا نكون قد ابتعدنا عن روح المسيحية وأسأنا كثيراً لنفوس الناس.

لقد عانى الرسل كثيراً لكى يحرروا الكنيسة الأولى من المعتقدات الوثنية التى تسربت إلى المسيحية، من الاعتقاد بأن الأشياء المادية يمكن أن تحتوى على قيمة روحية، فأكدوا لنا أن الختان ورؤوس الشهور والأطعمة لا يمكن أن تجعل الإنسان صالحاً أو شريراً.

إن الإنسان هو الذى يمنح الأشياء المادية قيمتها الروحية وليس العكس!! فإذا كان قلبك ممتلىء بالمحبة والإيمان ستكتسب أعمالك وأقوالك تأثيراً صالحاً على المحيطين بك، أما إذا ظننت أنك بممارستك أعمالاً معيّنة أو ترديدك لصلوات محددة ستجعل قلبك ممتلىء بالمحبة والإيمان فهذه الوثنية تماماً!!



من بين كل أنواع الخداع يبقى خداع النفس هو الأكثر تدميراً، ومن بين كل المخدوعين يبقى المخدوع من نفسه أقلهم قدرة على اكتشاف انخداعه.

والسبب في هذا بسيط، فعندما ينخدع الإنسان من شخص آخر فهو ينخدع رغم إرادته، لأن الإنسان بطبعه لا يحب أن يكون مخدوعاً من الآخرين، والإنسان بطبعه أيضاً يتوقع الخداع من الآخرين لذلك فهو دائم الارتياب في كل شيء ويميل إلى الشك وإمعان النظر وتقصِّي الحقائق قبل أن يصدق ما يقوله الآخرون، وتحت هذه الظروف ربما ينخدع بعض الوقت ولفترات قصيرة ولكنه سرعان ما يكتشف انخداعه ويهرب من الفخ.

لكن الأمر يختلف تماماً في حالة خداع النفس، إن الإنسان في هذه الحالة هو عدو نفسه وينصب الفخ لذاته، **إنه يريد أن يصدق الكذب عن نفسه وهو مهيأ لذلك!!** إنه لا يقاوم الانخداع بل يشترك في خداع نفسه، ليس هناك صراع من أى نوع لأنه مستسلم للخداع، إنه يستمتع بكونه مخدوعاً!!

يقول الرسول بولس عن هذا «إن ظن أحد أنه شيء وهو ليس شيئاً فإنه يغش نفسه» (غل ٦:٣) ويعقوب يصادق على هذا بقوله «إن كان أحد فيكم يظن أنه ديِّن وهو ليس يلجم لسانه بل يخدع قلبه فديانة هذا باطلة» (يع ١:٢٦).

خداع النفس .. والتدين

كلما تقدم الإنسان أكثر في معرفة أمور الدين صار خداع نفسه أعظم، فالشخص المتدين أكثر ميلاً لخداع نفسه من ذلك الذى يأخذ الأمور الروحية بسطحية، فذلك الأخير لا يجد غضاضة في اكتشاف عيوب نفسه ومواجهتها بصراحة، أما الذى تعمق في التدين حتى صارت له هيئة «العارفين بالله» فإنه لا يستطيع بسهولة أن يواجه أخطاءه لأنها تتناقض مع هيئته، وستجرح مظهره أمام نفسه وأمام الآخرين، ومن ثم يميل هذا الإنسان المتدين إلى الدوران حول الحقائق واكسابها مسمَّيات أخرى، وهو دائماً مُجرَّب بأن يلجأ إلى كل خدعة لكى يحفظ كرامة نفسه ويُبقى مظهراً حسناً لإنسانه العتيق!! وما أخطر هذا الخداع، وما أسهل أن يظل الإنسان مخدوعاً إلى النهاية، إلى الدينونة!!

إن في دواخلنا جميعاً قلباً ساقطاً، هو بالطبيعة عابد وثن!! يميل دائماً للانحراف عن الله والسجود لآلهة أخرى دفينة في مخادع النفس الداخلية (حز ١٢:٨)، الذات والشهوات والعالم... إلخ، ولأن فضح هذه الأصنام والتخلص منها يحتاج إلى بعض الألم وإنكار الذات فإن الإنسان يفضِّل أن يخدع نفسه بكل وسيلة ليحفظ أصنامه في أمان وليحفظ مظهره «الديِّن» أمام الناس!!

.. حتى بالصلاة !!

الصلاة هى الدواء الشامل لكل الأمراض والمفتاح الذى يفتح كل الأبواب، ولسنا في حاجة لأن نعدد مزايا وتأثيرات الصلاة التى يضعها فينا الروح القدس، ولكن ينبغى أن نتيقظ لأن الصلاة ذاتها يمكن أن تصبح مصدراً لخداع النفس!! أحياناً يكون هناك خداع بقدر ما يكون هناك صلوات!! فأنبياء العهد القديم طالما وبَّخوا شعب إسرائيل لأنهم دأبوا على إخفاء خطاياهم خلف صلواتهم، والرب يسوع فضح صلوات المرائيين، ويعقوب يصرِّح بأن بعضنا يصلون ولا ينالون لأنهم يصلون ردياً !!

ينبغى أن يكون المصلى أميناً مع نفسه ومع الله، لا يمكن أن يصلى عن الصليب بينما يخفى في قلبه إنساناً عتيقاً غير مصلوب، ولا يجوز أن يحتمى في الدم لأجل تبريره بينما يفتخر في أعماقه ببره الذاتى، إن الشيء الوحيد الذى يطلبه الله من الإنسان حتى يسمع لصلاته هو الأمانة، ينبغى أن يطرح الإنسان عدم الأمانة جانباً إذا أراد أن يُقبل أمام الله، **إن ازدواج القلب مكرهة الرب، والإنسان غير الأمين مع نفسه ومع الله ليس له أمل في الاستجابة**، النعمة تخلِّص الإنسان فقط ولكنها لا تخلِّص الإنسان وأصنامه، والدم الكريم يغطى الخاطيء التائب فقط ولكنه أبداً **لن يغطى الخاطيء وإلهه الغريب، والإيمان بحمل الله سيبرر الأثيم فقط لكنه إطلاقاً لن** يبرر الأثيم وآثامه !!

أحياناً نصلى صلاة مملوءة اتضاعاً وتسليماً لكى نخفى كبرياءنا وعدم طاعتنا!! وأحياناً نتذلل ونبكى في الصلاة لكى نجعل الله يتعاطف معنا ويصادق على طرقنا الملتوية!! وأحياناً نعترف بخطايا كثيرة وتقصيرات عديدة لكى نحفظ خطيتنا السرية المحبوبة في أمان، غير معترف بها!! كل هذه الصلوات غير مقبولة أمام الله، لأننا نستطيع أن نخدع أنفسنا ولكننا أبداً لن نخدع الله! !!

كيف يمكنك التحرر من خداع النفس؟ لتعنى ما تقوله ولا تقل أبداً ما لا تعنيه، سواء لله أو للناس، فكِّر في نفسك بصورة واضحة ونزيهة وتصرف بحسب ما يدور في أعماقك مهما كانت العواقب، ادع الصليب إلى حياتك لكى يحفظك ميتاً للذات ولرأى الناس، قد يسبب لك هذا بعض الآلام لكن الأمانة مع النفس ومع الله هى جوهرة ثمينة تستحق أى تكلفة.

- ٢٢ -

التفاخر والتصاغر

كلنا يعرف كم هو مؤلم أن تُضطر للاستماع إلى شخص يتكلم بتفاخر عن موضوعه المفضل: ذاته!! ولاشك أن اضطرارك للاستماع لمثل هذا الإنسان ولو لفترة وجيزة يمتحن قوة احتمالك إلى أقصى حد ويضع ثقلاً مرهقاً على تسامحك المسيحى!!

والتفاخر بالذات صفة ممقوتة وبخاصة عندما تسمعه بين أبناء الله!! المكان الأول الذى لا ينبغى أن توجد فيه هذه الصفة الرديئة، ولكن للأسف أصبحت هذه الصفة معتادة جداً في أوساط المؤمنين حتى لو تخفَّت أحياناً تحت التعبير المألوف الأجوف: «.. أنا أقول هذا لمجد الله»!!

والله صبور جداً مع أولاده، ودائماً يتحمل منهم صفات جسدية رديئة رغم أنها كثيراً ما تجرح إخوتهم المؤمنين، ولكن هذا إلى حين فقط، فعندما يرسل الله نوراً أكثر إلى قلوبنا وعندما يقودنا إلى اختبارات روحية أعمق، يبدأ عندئذ في فرض تأديبه وتهذيبه علينا لكى يُطهرنا من ذات العيوب التى احتملها فينا من قبل، فقد يُسمح لنا بقول وعمل أشياء ترتد علينا بصورة غير متوقعة وغير مرغوبة تعرِّض تفاخرنا وغرورنا لصدمة قاسية، أو أن تسمح عناية الله بأن تؤخذ منا ذات العطية أو الموهبة التى كانت موضع تفاخرنا، أو أن نصاب بخسارة أو فشل في بعض أمورنا المادية... إلخ.

وبعد أن نتعلم الدرس يعوضنا الرب عن كل الذى خسرناه، لأنه يحبنا ولا يشاء لنا الخسارة بل يريد أن يطهرنا من تلك الصفة الرديئة، ولو أدى تأديبه وتهذيبه إلى خسارة في مجال الخدمة فلا تُبالِ **لأن الله يهتم بنفوسنا أكثر مما يهتم بخدمتنا!!**

.. والتصاغر أيضاً

وهناك صفة أخرى رديئة وهى التقليل من شأن أنفسنا، وهذه الصفة قد تبدو مضادة لصفة التفاخر وغير مكروهة مثلها، لكن الحقيقة أنها نفس الداء الردىء ولكنه ينتحل شكلاً جديداً!! فالتصاغر هو أيضاً إحساس بالذات ولكن بصورة تبدو أكثر روحانية، إن الله يبغض التقليل من شأن الذات لأنه نابع أيضاً من انشغال الإنسان بذاته، **والذات الساقطة سواء تفاخرت أو تصاغرت ستظل مكرهة الرب!!**

المتفاخر والمتصاغر كلاهما مشغول بذاته وإن اختلف موقف كل منهما، فالمتفاخر هو شخص مسرور بذاته معتز بها، أما المتصاغر فهو شخص مستاء من ذاته محبط منها، لأنه يعتقد أن ذاتاً عظيمة مثل ذاته ما كان ينبغى أن تتصرف بهذا الشكل!! ولذلك فهو يعاقبها بكلام يحط من شأنها ويقلل من قيمتها!! ولكن الحقيقة أنه لا يعنى حقاً ما يقوله عن نفسه ولا هو يدينها بالحق، ومن السهل جداً أن تكتشف هذا: دع شخصاً آخر يقول له ذات الأقوال والاتهامات التى قالها هو عن نفسه، حالاً ستجده ينبرى في دفاع شرس عن نفسه ويبرر تصرفاته بكل الطرق!! وهكذا يظهر لنا جلياً حقيقة شعور «المتصاغر» تجاه نفسه، إنه يحبها ويقدِّرها جداً!!

صفات المسيحى الحقيقى

المسيحى الحقيقى لا يقدِّر نفسه أكثر من حقها ولا يبخسها حقها، إنه لا يهتم بها إطلاقاً ولا يضعها محوراً لمشغوليته، اهتماماته تحولت من الذات إلى المسيح، إنه يؤمن بأنه مات مع المسيح وهو الآن لم يعد يهتم بأن يمدح أو يقدح في شخص ميت!!

وهو ليس شخصاً ميتاً في المسيح فقط بل يحيا الآن في المسيح أيضاً: «مع المسيح صُلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىَّ. فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله» (غل ٢ : ٢٠) لقد أصبح المسيح الآن في المكان الذى كانت تحتله الذات سابقاً: محور الاهتمام ومركز المشغولية، لقد أصبح يدور في فلك المسيح وفي غمرة اهتمامه بالمسيح كثيراً ما ينسى ذاته تماماً وينسى أن يمدح فيها أو يذم!!

ولكن الإخلاص والصراحة يدفعاننى للاقرار بأنه من الأسهل جداً أن نكتب عن هذه الأمور من أن نحياها!! فالذات من أصلب وأقسى النباتات التى تنمو في تربة حياتنا، إنها في الواقع غير قابلة للتدمير بأية وسيلة بشرية، بل إنها في ذات اللحظة التى نظنها قد ماتت نفاجأ بها تبرز من مكان ما بنفس عنفوانها القديم لكى تفسد سلامنا وتسمم حياتنا!!

لكن الله لديه الحل، وبالإيمان والطاعة يستطيع أن يقودنا إلى حياة إنكار الذات الحقيقية، وطريق الصليب الذى صار فيه المسيح سيقودنا فيه عملياً، إنه لا يرضى بأن نظل مؤمنين نظريين نكتفى بالمعرفة العقلية والكلام الأجوف عن الصليب وإنكار الذات، بل سيقودنا عملياً لاقتلاع تلك الذات الرديئة من أعماقنا، لأنه لا بركة حقيقية بدون صلب للذات.

إذا وجدت نفسك تتفاخر أو تتصاغر فاعلم بأن الصليب لم يعمل بعد عمله في حياتك، وليتك بالإيمان والطاعة تسمح للصليب أن يعالج فيك كلاً من الصفتين.

الانفعالات غير المقدسة

— ٢٣ —

« ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحاً بملح » (كو ٤ : ٦)

بعض المؤمنين يهتمون بألا تكون في حياتهم خطايا صريحة أو أفعال مشينة ولكنهم لا يهتمون بانفعالاتهم النفسية وردود أفعالهم التلقائية، رغم أنها أحياناً لا تقل خطورة عن الخطايا الصريحة.

هذه أخت مؤمنة لا تُدخن ولا تسكر ولا ترتاد أماكن اللهو العالمية ولكنها تتعامل دائماً بحدة وألفاظها تتميز بالفظاظة والصدود، حتى إن أسرتها تعاني دائماً من المشاكل والتوتر بسبب لسانها السليط!!

وهذا خادم قضى حياته يجاهد لأجل الإيمان المسلَّم مرة للقديسين، وكم تعب جداً في خدمته، لكنه من الناحية الأخرى صعب المعشر جداً، طبعه حاد وكلماته جارحة وردود أفعاله عنيفة، يسخر دائماً من الآخرين ويقلل من شأنهم، حتى إن أسرته كثيراً ما تمنَّت أن يمضي ليسكن مع القديسين في السماء إلى الأبد!! وعندما انحلَّت خيمته الأرضية إلى بيته الأبدي بالكاد نزلت الدموع حزناً عليه!!

شرور الانفعالات غير المقدسة

هناك الكثير من الانفعالات غير المقدسة في حياة المؤمنين وهاك بعض الأمثلة لها: الحساسية المفرطة، سرعة التهيج، الفظاظة، تصيُّد الأخطاء، حب الانتقاد، الميل للنكد والتذمر، القسوة، العناد، عدم الغفران، السخرية من الآخرين، التباهي، وانفعالات أخرى كثيرة.

وهذه الانفعالات غير المقدسة مؤذية للمؤمن تماماً مثل أفظع الخطايا الصريحة، وأذاها يمتد إلى أكثر من اتجاه: فمن جهة حياة المؤمن هي تبطئ أي تقدم يريد الله أن يصنعه في حياته وتعطِّل أي عمل للروح القدس، ومن جهة الآخرين هي تقتل روح المحبة والوحدة في البيت والكنيسة وتعطي الفرصة لروح الانقسام والخصام أن تسود وتهدم سلام البيت أو الكنيسة، وأما من جهة العالم فكم من نفوس كانت تريد أن تعرف المسيح لكنها ابتعدت وتعثَّرت بسبب الخصال النفسية السيئة في حياة المؤمن الذي حاول أن يقدم لهم المسيح، إن الناس لابد أن تمر من خلال دائرة المؤمنين لكي تصل إلى المسيح، ولو وجدوا أن المؤمنين ذوو نفسيات جارحة وألسنة حادة فلن نستطيع أن نلومهم لو ابتعدوا عن المسيح.

المأساة !!

إن الخلاص من هذه الانفعالات النفسية السيئة هو ضرورة قصوى في أيامنا هذه، فكم من خراب وفوضى في بيوتنا وكنائسنا بسبب هذه الخصال السيئة. **إن مأساة المسيحية هي القديسون غير المقدَّسين!!** إنهم يعتبرون أنفسهم قديسين وأبناء لله ولكنهم لا يبذلون أي جهد للتخلص من هذه الانفعالات القبيحة، بل أنهم لا يعتبرونها خطايا تستحق التوبة، وهذه هي قمة المأساة!!

إن سبب ابتعاد الناس عن الإيمان في هذه الأيام الأخيرة هو فقدان الثقة في المؤمنين!! بسببنا يُجدَّف على الاسم الحسن!! إن الانفعالات النفسية غير المقدسة في حياة المعترفين باسم المسيح هي كارثة ووباء، ينبغي أن نسعى جاهدين للخلاص منها ونكف عن التماس الأعذار لأنفسنا.

ليس إبليس !!

هناك عادة مبتذلة في أوساط المؤمنين في هذه الأيام ألا وهي إلقاء اللوم على إبليس بخصوص الأوضاع المتردِّية في بيوتنا وكنائسنا، إننا ندَّعي أنه المسئول الوحيد عن الارتداد والانقسام والتقهقر الروحي المنتشر في كل مكان، لكن هذا الإدعاء ليس صحيحاً ولن يعفينا من المسئولية!!

ونحن بالطبع لا نقلِّل من قدرة إبليس على زرع المشاكل، ولا نقول إنه كفَّ عن مقاومة شعب الله، لكننا نقول إن سلطانه محدود جداً على أبناء الله حتى إنه لا يستطيع أن يصنع شيئاً في حياتنا إلا إذا أعطيناه نحن الفرصة لذلك!! **إن إبليس لا يستطيع أن يؤذي المؤمن الذي لا يؤذي نفسه!!** إبليس ليس لديه سلطان على المؤمن المتضع الطائع، إنه يستطيع أن يؤذينا فقط عندما نساعده نحن بتصرفاتنا غير المقدسة وغير المشابهة للمسيح، وعندما نرعى بداخلنا انفعالات غير طاهرة وغير محكوم عليها.

دعونا نعترف .. ونتوب !!

إنه وقت لكي نكف عن التماس الأعذار لسلوكياتنا غير المقدسة، ولنعترف بصراحة بفشلنا في الحياة كما ينبغي لنا أن نحيا، قال «وسلي» مرة: **«إننا لن نؤذي صورة المسيح أمام الناس إذا اعترفنا بخطايانا، لكننا سنؤذيها بكل تأكيد إذا لم نعترف»!!**

هناك علاج لهذه الانفعالات الداخلية، هناك قوة في المسيح تمكِّننا من حياة النقاء والمحبة، نحتاج فقط أن نطلب هذا ونتمسك به، والله لن يخزينا أبداً.

الانفصال إلى ..

بقلم : فرنسيس هفرجال (مؤلفة الترانيم وخادمة الرب الشهيرة ١٨٣٦ - ١٨٧٩)

- ٢٤ -

" أقليل عليكم أن إله إسرائيل أفرزكم من جماعة إسرائيل ليقربكم إليه ؟! " (عدد ١٦: ٩)

تعليم الانفصال أو الفرز أو الانتذار للرب هو تعليم أساسى في الكتاب المقدس وركن أساسى في أية حياة روحية حقيقية (يو ١٧: ١٦) إلا أن المؤمنين اليوم ينظرون إليه باعتباره قاسياً وغير ضرورى، والسبب هو أنهم ينظرون إليه من جانب واحد فقط ألا وهو جانب «الانفصال عن ...» غير عالمين أن له جانباً آخر وهو «الانفصال إلى..»، ودعونا نفكر قليلاً في هذا الجانب اللامع والجميل في الانفصال.

اشياء افضل

لا يوجد انفصال حقيقى عن الأشياء التى دعانا يسوع لنتركها بدون انتساب مواز إلى أشياء أفضل بما لا يقاس (مر ١٠: ٢٩، ٣٠) وهذه الأشياء الأخيرة عظيمة جداً حتى أننا لا نستطيع أن نعتبرها تعويضاً عن الأشياء التى ننفصل عنها، ومَنْ يستطيع أن يقول عن صداقة الملوك إنها تعويض عن صحبة الشحاذين؟! ومَنْ يعتبر امتلاك البنك المركزى تعويضاً عن خسارة قروش قليلة؟ ومَنْ يعتقد أن السكن في قصر الملك تعويض عن المبيت على الرصيف؟! اقرأ (فى ٣: ٨ ، ١كو ٣: ٢١ - ٢٣).

وإذا نظرنا إلى الأشياء التى ننفصل إليها نجد أننا ننفصل أولاً

إلى الرب

أول وأعظم شىء هو أننا ننفصل إلى الرب نفسه (عد ٦: ٢) وهو دعانا إلى نفسه لنكون أحباءه (يو ١٥: ١٥) وكم هى حقيقة رائعة ومشبعة أن تكون حبيب الرب!! إنه يريد أن يقرّبك إلى نفسه حتى تصير من ضمن «الشعب القريب إليه» (مز ١٤٨: ١٤) إنه لا يقبل نصف ملكية على حياتنا لأنه اختارنا من بين الشعوب لذاته ولخاصته ولنكون ميراثه (١مل ٨: ٥٣ ، مز ٣٥: ٤).

أقليل في عينيك أن يختارك الرب لتكون من خاصته؟ أقليل عليك أن تكون قريباً للرب كل أيام انتذارك (انفصالك) (عد ٦: ٨) هل هناك أى تاج أرضى يساوى أن يكون انتذار إلهك على رأسك (عد ٦: ٧)!! ليتنا نُدرك قيمة الانفصال للرب.

ونحن ننفصل ثانياً

إلى الكنيسة

إننا ننفصل عن شركة العالم لكى ننضم إلى شركة إنسانية أعظم وأعمق مما يعرفه العالم، شركة أبدية ليس فيها انفصال أبداً «كل الذين انفصلوا من شعوب الأراضى إلى شريعة الله، كل أصحاب المعرفة والفهم لصقوا بإخوتهم وعظمائهم» (نح ١٠: ٢٨، ٢٩) قد ننفصل عن شعوب الأرض لكننا نلتصق بإخوة عظماء (مر ١٠: ٣٠) ومعهم نجد كل المحبة والسعادة والحرية في الشركة، أليس هذا أكثر جداً مما تعطيه شركة العالم؟

لكننا لن نتمتع ببركات هذه الشركة إلا إذا انفصلنا بالكامل عن شركة العالم إلى شركة الكنيسة، البعض يحاول أن يحصل على الأمرين معاً ولكن هذا مستحيل (مت ٦: ٢٤ ، يع ٤: ٤). مَنْ يحاول الحصول على الكل لن يحصل على شىء، سيشعر بفراغ شركة العالم وفي نفس الوقت لن يتمتع بشركة الكنيسة لأنه ليس منفصلاً بالكامل لها، وبالتالى لن يعرف التمتع بأى منهما.

وأخيراً نحن ننفصل

إلى العمل

«قال الروح القدس أفرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه» (أع ١٣: ٢). إننا ننفصل لأجل عمل أعدهُ الله لنا، وهناك أعمال كثيرة لكن لكل واحد عمله (مر ١٣: ٣٤) إن حياة المؤمن المنفصل ليس فيها مكان للكسل أو الفراغ أو الفوضى بل هى مملوءة بالنفع والانجاز.

هناك البعض انفصلوا بشكل خاص لكى يحملوا آنية الرب (إش ٥٢: ١١) والبعض انفصلوا لكى يقفوا في بيت الرب بالليالى (مز ١٣٤: ١) ولذلك هناك دائماً «أغانى بالليالى» تصعد لمجد الله (أى ٣٥: ١٠) وهناك البعض انفصلوا لكى يخدموا الجوعى والعطشى والمساكين، وهم يفعلون كل ذلك لمجد سيدهم وباسمه (١ أى ٢٣: ١٣).

أليست دعوتنا دعوة عُليا؟ أم هى قليلة في أعيننا ويمكن الاستغناء عنها؟ أليست شيئاً يفوق كل ما يخطر على بال الإنسان؟ هل لك حياة الانفصال؟ اسمع ما يقوله الكتاب « لذلك اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم» (٢كو ٦: ١٧) هذا هو أمر الله لنا وإذا أطعناه سنتمتع بهذه البركة التى لا يُعبَّر عنها، بركة قبول لله لنا ورضاه علينا.

- ٢٥ -

إنسان جديد فى عالم قديم

«.... في العالم سيكون لكم ضيق ....» (يو ١٦ : ٣٣)

المؤمن الذى قدّم حياته لله لا ينبغى أن يندهش من الضيق الذى سيشعر به فور دخوله إلى الإيمان، هذا الضيق منطقى ومتوقع، إنه ينشأ من الاختلاف بين طبيعة الله وطبيعة الإنسان.

المؤمن الجديد سيكتشف أن طرق الله لا تتوازى مع طرق الإنسان، سيكتشف أن المهارات التى تعلّمها في حياته القديمة لن تجديه نفعاً في حياته الجديدة، وأساليبه المجرّبة والناجعة في أرض الإنسان سوف تخذله عندما يحاول تطبيقها في أرض الروح، إنسانه الجديد لن يتوافق مع إنسانه القديم ولن تتكيف طبيعته الجديدة مع طبيعة العالم القديم، الله لن يعطى مجده لآخر ولابد للمؤمن الجديد أن يتعلّم الدرس الصعب ويفهم منطق الطريق الضيق ألا وهو: «لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحى قال رب الجنود».

الكنيسة الحقيقية هى أعجوبة مثيرة للدهشة في نظر الخليقة القديمة، عندما رأى شعب إسرائيل «خبز الملائكة» اندهشوا لأنه نزل من السماء وكان لا يُشبه أى شئ يعرفونه، وتساءلوا فيما بينهم «مَنْ هو؟» ولذلك أسموه «من»، ولقد ظل «مناً» طوال الوقت!! أى ظل شيئاً غريباً وسط أشياء الأرض المعتادة، شيئاً سماوياً وسط الأرضيات، شيئاً فوق الطبيعى وسط كل الأشياء الطبيعية.

وهكذا الأمر مع الكنيسة، إنها ملاءة نازلة من السماء، شئ غير مألوف ولا معتاد يقتحم عالم الأشياء المعتادة، شئ لا يمكن للعالم أن يفهمه أو يفسّره أو يتجنّبه، الجزء الذى يمكن أن يخضع فيها للفهم والتحليل هو الجزء الإنسانى وهو الجزء الأقل قيمة في الكنيسة، الإناء الخزفى الذى يحتوى الكنز الثمين، أما الكنز نفسه فيبقى أعلى من قدرة الإنسان على الفهم والتعبير.

في العالم سيكون لكم ضيق

هذا الاختلاف بين طبيعة المؤمن الجديدة وطبيعة العالم القديم هو سر الضيق الذى يشعر به المؤمن في العالم، فالمؤمن الجديد يشبه إنساناً تعلّم أن يقود سيارته في دولة يسير فيها المرور على الجانب الأيسر، وفجأة انتقل إلى دولة أخرى وأُضطر لقيادة سيارته على اليمين!! لابد أن يتخلى عن كل عادات القيادة القديمة ويتعلّم عادات جديدة، لابد أن يقاوم ردود أفعاله القديمة وينمّى ردود أفعال جديدة، والأصعب من كل هذا أنه ليس لديه الوقت أو المكان الذى يتدرب فيه، إنه مضطر أن يتعلّم كل هذا أثناء قيادته في شوارع المدينة وسط المرور الكثيف في ساعة الذروة!! وهكذا المؤمن الجديد مضطر أن يتعلم قوانين الحياة الجديدة في وسط معترك الحياة العملية، **لا توجد مدرسة للتدريب على الحياة المسيحية يمكن للمؤمن أن يتعلم فيها بأمان ويخطئ فيها بدون خسائر قبل أن يخرج للحياة العملية حيث كل خطأ له خسائره!!** كل هذا يسبب للمؤمن الجديد ضيقاً في العالم، ولكن نعمة الله الغنية تمنحه الغفران إذا أخطأ وترده مرة أخرى للشركة مع الله إذا ابتعد.

الكتاب المقدس هو سجل لمعركة المولودين مرتين للحياة في عالم يسوده المولودون مرة واحدة!! صفحاته مملوءة بأنات ودموع أناس صالحين في عالم شرير، أناس كان انتماؤهم لمملكة السماء يُعتبر عداوة لمملكة الإنسان تستحق العقاب!!

راحــة وضيــق !!

لقد وعد الرب كل مَنْ يأتى إليه بالراحة والضيق معاً !!

أما الراحة فلأنه حمل عنا خطايانا، محا الصك الذى كان ضداً لنا، الآن نحن أبناء الله ووارثون للحياة الأبدية، ماضينا قد غُفر وحاضرنا وديعة بين يدى الله ومستقبلنا مضمون بدم العهد الأبدى.

وأما الضيق فلأن العالم الجديد الذى دخلناه مختلف كلياً عن العالم القديم الذى تركناه، القوانين الروحية والأخلاقية في ملكوت السماوات تختلف تماماً ونحتاج إلى مجهود لنتعلّمها، المستويات، القيم، الأهداف، الوسائل.... كل شئ مختلف، الأشياء التى كنا نعتبرها بديهيات طوال حياتنا الماضية أصبحت مرفوضة الآن من الكتاب المقدس ومن روح الله الساكن فينا، كثير من الأعمدة الصلبة التى اتكلنا عليها سابقاً وبنينا عليها حياتنا أصبحت الآن هشة ومهيأة للانهيار في أى وقت، أصبح من الضرورى أن نغيّر مواقفنا من كل شئ تقريباً، والأصعب من كل شئ أننا ينبغى أن نفقد ثقتنا في أنفسنا، تلك الثقة التى صرفنا أوقاتاً طويلة لكى نكتسبها، إننا نسمع الرب يقول «بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً»، نحتاج أن نأتى عند قدميه كأطفال صغار لكى نتعلّم، نفقد ثقتنا في كل ما تعلّمناه ونلقى بأنفسنا بالكامل على نعمته، وكلما سعينا في هذا الطريق الضيق اكتسبنا مواقف روحية ونفسية جديدة، وكلما عرفنا الرب أكثر مضت الأشياء العتيقة ويصير الكل جديداً، آمين.



- ٢٦ -

«فلسفة المتعة» التى كانت تسود المجتمع اليونانى القديم أصبحت اليوم تسود مجتمعنا المعاصر ولكن بأساليب أكثر عصرية، هذه الفلسفة تنادى بأن المتعة الحسية هى غاية الإنسان من وجوده، وأن الإنسان ينبغى أن يسعى بكل الطرق للحصول على السعادة أياً كانت هذه الطرق، فكل الطرق تصير مشروعة في سبيل الوصول إلى السعادة المنشودة.

ورغم أن «فلسفة المتعة» تدمر أى سمو للأخلاق إلا أنها باتت الآن الفلسفة الأكثر انتشاراً بين أبناء الجيل الحالى، أصبح الشغل الشاغل لكل الناس هو كيفية الحصول على أقصى متعة ممكنة من الحياة، كل الروايات والأفلام والمسرحيات تحاول أن تغذى الغرائز وتبث في نفوس الناس أن المتعة الحسية هى الهدف الأسمى الذى ينبغى أن يسعوا إليه.

قبل أن تعطى الفتاة العصرية قرارها بشأن قبول الزواج من أحد الشبان تسأل ما إذا كان هذا الشاب يستطيع أن «يسعدها» أم لا (والغريب أنها لا تسأل ما إذا كانت هى تستطيع أن تسعده أم لا!!) أعمدة المشاكل العاطفية في كل الجرائد تجدها مبللة دائماً بدموع الرثاء للنفس والبكاء على أطلال السعادة المحطمة، كل رواد مكاتب المشورة يُقض مضاجعهم سؤال واحد عن كيفية الحفاظ على سعادتهم الأسرية من الانهيار، أطباء النفس أصابتهم التخمة من تزايد أعداد المحطمين نفسياً وعصبياً من جراء السعى المجنون خلف سراب السعادة المنشودة، وصفحات الحوادث أصبحت تمتلىء بجرائم مروّعة يرتكبها أصحابها بسهولة بالغة ضد أشخاص لمجرد أنهم «وقفوا في طريق سعادتهم»!!

بل إننا نجد تأثير «فلسفة المتعة» يمتد حتى داخل الكنائس!! فكثيراً ما تُقدم بشارة الإنجيل على أنها الوسيلة الأكثر ضماناً للحصول على السعادة!! وآخرون يرون في الصلاة وسيلة ناجحة للوصول إلى سلام الذهن!! والبعض يتناول وعود الكتاب المقدس لكى يطمئنوا أنفسهم ويدخلوا السرور لنفوسهم!! حتى أقدس الأمور صار الإنسان يستخدمها بهدف الحصول على سعادته الشخصية.

عداوة لله !!

إن هذه الفلسفة مضادة تماماً لفكر الله لأنها تنبع من «اهتمام الجسد» الذى هو عداوة لله (رو ٨:٧) ولأنها تنشأ من سوء فهم خطير لنفس الإنسان وطبيعة الرغائب المتصارعة فيها، الإنسان الذى يعرف نفسه بالحق لا يمكنه أبداً أن يتجاوب مع طبيعته الساقطة، نظرة واحدة لقلبه في نور الله تجعله يدين نفسه ويقبل حكم الله عليها، إن الفلسفة التى تنادى بأن هدف الإنسان من الحياة هو المتعة هى فلسفة مضادة لله وقبولها على نطاق واسع في مجتمعنا مؤشر على أن المجتمع صار بعيداً جداً عن الله.

القداسة أولاً

القراءة البسيطة المتأملة في العهد الجديد تظهر لنا خطأ هذه الفلسفة، في كلمة الله نرى أن القداسة هى هدف وجود الإنسان وليست السعادة، في كلمة الله نرى أن الله يهتم بحالة قلب الإنسان أكثر من اهتمامه بحالة مشاعره، لا شك أن مشيئة الله النهائية تحمل السعادة الأبدية لكل الذين يطيعونه، لكن في الحياة الحاضرة يظل السؤال المهم هو كم نحن مقدسين وليس كم نحن سعداء، فالجندى لا يطلب أن يكون سعيداً طالما هو في ميدان المعركة بل بالحرى يطلب أن يكون منتصراً، وعندما تنتهى المعركة ويعود إلى بيته وأحبائه ظافراً ستكون عنده الفرصة الكاملة ليشعر بالسعادة الغامرة، لكن طالما أن المعركة دائرة فلابد أن يكون تركيزه الأول هو أن يكون جندياً صالحاً، ولابد أن يضبط نفسه في كل شىء ويتصرف كرجل بغض النظر عما يشعر به.

السعى الصبيانى خلف السعادة، حتى في المجال الروحى يمكن أن يكون فخاً حقيقياً لأبناء الله، فكم من كنائس تسعى لإشباع مشاعر الناس بالكلام الجميل والموسيقا الحالمة، وعندما يشعر المرء بالراحة في مشاعره يتبلد ضميره ويستريح رغم أن حياته العملية خالية من أى بر حقيقى يرضى الله، المؤمن لا ينبغى أن يطلب الراحة لمشاعره إلا بعد أن يُدرك القداسة في سلوكه، ينبغى أن نبذل كل الجهد في طلب معرفة مشيئة الله وفعلها تاركين لله تحديد حجم السعادة التى نشعر بها.

-- قدّسنى !!

اذهب إلى الله وقل له أنك تريد أن تكون مقدّساً مهما كان الثمن، اطلب منه ألا يعطيك أبداً سعادة أكثر من القداسة!! اسأله أن يقدس حياتك سواء شعرت بالسعادة أم لا، وثق أنك في النهاية ستكون سعيداً بمقدار ما ستكون مقدساً، لكن في الوقت الحالى ليكن كل اهتمامك أن ترضى الله، إذا فعلت هذا ستختبر درجة أعمق من النقاء الداخلى وبالتالى ستختبر درجة أعمق من السعادة ولكنها السعادة الناشئة من الالتصاق بالله، السعادة الطاهرة الخالية من دنس الجسد.

- ٢٧ -

التصنُّع مرض الخدام

عندما كنت صبياً صغيراً كنت أجد لذة في ملاحظة سلوك الناس المحيطين بي، وإحدى ملاحظاتي التي صدمتني بعنف كانت الافتعال والتصنع الذي يبديه الخدام وهم يتكلمون إلى الشعب، لقد بدا لي أنهم يعيشون في عالم آخر بخلاف العالم الواقعي الذي يعيش فيه بقية الشعب.

الحقيقة أني لم أنشأ في بيت مسيحي ولذلك لم أكن معتاداً على اللغة الدينية التقليدية، ولذلك عندما أتيحت لي الفرصة مصادفة أن أستمع إلى عظة دينية كنت أستمع بأذن لم تتعود على هذه اللغة التي اعتادها الشعب الكنسي ولم يعد يستغربها، كانت أذني «محايدة» ولذلك كم بدا الوعاظ غرباء بالنسبة لي وكم بدت ترانيمهم مصطنعة وكم بدا سلوكهم غير طبيعي!!

كانوا أناساً عاديين كما هو واضح لكن كان ينقصهم الوضوح والبساطة والتلقائية التي عرفتها في بقية الناس العاديين، الحديث الصريح واللغة الواضحة كانت مفقودة بينهم وبين الشعب، كانوا يبدون منفعلين ومضطربين ومهتاجين لسبب ما لم أكن أستطيع تبينه، لأنه بالتأكيد أن الناس الوديعة الصابرة التي تستمع إليهم لم تكن هي سبب كل هذا الانفعال، فعندما كنت أنظر لوجوه الحاضرين كنت أجدهم غير مبالين بما يجرى على المنبر وغير منفعلين به، ولعل السبب هو كثرة تعودهم على هذا الانفعال حتى صار مألوفاً لديهم، أما أنا فلم أكن معتاداً على هذا الافتعال ولم أفهم له سبباً، واستطعت وقتها أن أفهم ما يعنيه القول الفرنسي الساخر: «إن الله خلق البشر في ثلاث أجناس مختلفة: الرجال والنساء والوعاظ»!!

أما الآن - وبعد أن صرت خادماً - أصبحت أكثر انحيازاً وتفهماً للوعاظ ولا أتوقع منهم أن يكونوا كاملين ولكني مازلت منحازاً بشدة للغة الصريحة والبسيطة أيضاً، فأنا متيقن أنه من غير الممكن أن تؤثر في شعب وأنت تستخدم لغة غريبة على مسامعه، لابد أن يشعر الشعب أننا منهم ونتكلم معهم باللغة التي يفهمونها ويستخدمونها في حياتهم اليومية.

أرجع بكم إلى اختباري الشخصي، فمن رحمة الله أنه سمح لي بعد هذا بأن أستمع إلى خادم آخر أعطاني انطباعاً بأنه إنسان طبيعي!! كان يتكلم بلغة بسيطة ومباشرة، كان يعرف ما يريد أن يقوله وقاله بوضوح واستقامة، وشكراً لله أني قبلت كلامه!!

التصنع بدافع الخوف

أحد أسباب التصنع هو خوف الخادم من إغضاب الشعب، لذلك فهو لا يتكلم بصراحة عن الأخطاء الموجودة في الحياة ولا يقدم فكر الله المستقيم بل يضطر إلى اصطناع مواضيع هلامية لا تنطبق على الواقع لكي لا يجرح أحداً، ويستخدم لغة رسمية وتعبيرات مقعرة لكي لا يواجه الأخطاء مباشرة ويدينها، وتكون النتيجة بلاشك هي فقدان التأثير على السامعين الذين لا يفهمون شيئاً مما يقال.

حقاً إن الكنيسة قد عانت طويلاً من خدام عنفاء، كانوا يتشاجرون مع السامعين أكثر مما يعظونهم، ولكنها عانت أكثر جداً من الخدام الجبناء الذين فضّلوا أن يكونوا لطفاء عن أن يكونوا صرحاء، ونحن لسنا مطالبين بأن نختار أيهما أصلح: العنيف أم الجبان لأن كلاهما على خطأ، فالكتاب يطالبنا بأن نجمع بين المحبة والشجاعة في آن واحد، أن يكون لنا اللطف والحق معاً، أو كما يقول بولس «ليكن كلامكم كل حين بنعمة مصلحاً بملح» (كو ٤:٦). لابد أن تجتمع «النعمة» و «الملح» معاً في كلامنا، إن غياب الملح هو الذي يجعل الكثير من خدماتنا بلا طعم وعديم التأثير.

ومعاهد اللاهوت قد تكون مشاركة في هذا الوضع، فهي تدرّب تلاميذها على أن يقولوا كلاماً محبباً للناس، أن يرسموا دائماً على وجوههم ابتسامة باهتة بلا معنى، أن يستبعدوا من كلامهم كل الملح ويتركوا فقط الحلاوة، لكن الحقيقة أن كل مَنْ يقف لكي يقدم كلمة الله للناس ينبغي أن يتكلم بسلطان الكلمة ذاتها، الكتاب المقدس يقدم للناس محبة الله العجيبة ولكنه في ذات الوقت صريح تماماً وحاسم في مواجهة أخطائهم، رجال الله في كل العصور لم يكونوا يوماً عنفاء أو شرسين لكنهم كانوا دائماً أمناء مع الله والناس.

● كم أود أن أنصح كل الخدام الصغار أن لا يكونوا ضحايا التصنع والتكلف، أن يدرسوا بعناية كتابهم المقدس، أن يكونوا مبدعين وليسوا مقلّدين، أن يدرسوا بدقة كل المواضيع قبل أن يتكلموا عنها، أن يتجنبوا الكليشيات المحفوظة ويتحدثوا باللغة الدارجة المفهومة للناس. إن التصنع مرض خطير إذا تمكّن من الخادم يؤدى إلى تدمير الخدمة كلها.

لكي نهرب من فخ التصنع ينبغي أن تكون لنا شركة حقيقية مع الله، لابد أن نكون مكرّسين بالكامل للرب يسوع وممسوحين بالروح القدس، وآخر الكل ينبغي أن نتحرر تماماً من خوف الناس ونمتلىء بمخافة الله وحده.



وسائل الاعلام العالمية تقف على قدم وساق في هذه الأيام استعداداً للاحتفال بمقدم الألفية الثالثة. والحقيقة أننا لا نعلم بالضبط ما تعنيه هذه الألفية الجديدة، فمن الناحية الحسابية ما هى إلا تتابع حسابى للأرقام خالي من أى معنى يستحق الاحتفال وليس فيه أى جديد، فعام ٢٠٠٠ لن يختلف في شيء عن أى عام آخر إلا في الأرقام التى تميزه والتى هى أمر نظرى بحت لا قيمة له في الواقع.

ومن الناحية الاجتماعية فمقدم الألفية الجديدة لا يعنى إلا مزيد من الحروب والدمار والخراب. فالأعوام الأخيرة لم تشهد سوى تقدم مضطرد في الأمراض الفتاكة والكوارث الطبيعية والصراعات الدامية. إننا نعيش في عالم يزداد فيه الفقراء فقراً ويزداد الأغنياء فحشاً!! فبأى من هذه ينبغى أن نحتفل؟! إن آلة الاعلام الجهنمية تريد أن تخترع مناسبة ليس لها وجود أصلاً لكى تحوّل أنظارنا بعيداً عن الخراب والموت الذى يملأ أرجاء المسكونة حولنا، وتريد بأبواقها وضجيجها أن تغطى على صراخ وأنات الجوعى والمرضى الذين لا يجدوا مَنْ يستمع إليهم. أخبار المذابح والخراب تزداد في كل صباح حتى باتت أرقام آلاف الضحايا في الجرائد اليومية لا يلفت نظر أحد!! فعن أى احتفال يتكلمون؟ هل هو الاحتفال بالخراب؟!

النكتة !!

أما إذا قيل أنه الاحتفال بمرور ألفى عام على ميلاد المسيح فعندئذ تصل النكتة إلى ذروتها وتفجّر داخلنا ضحكات مليئة بالمرارة والأسى. فوسائل الاعلام ذاتها التى تحتفل بالألفية الجديدة هى التى تعتمد في أرباحها على أفلام الجنس والعنف الدموى!! لقد أصبحت وسائل الاعلام تتنافس على مقدار العرى والقذارة التى تمنحها لمستخدميها لكى تستقطب اهتمامهم ومن ثم أموالهم. **إن وسائل الاعلام باتت تطعم مشاهديها خرنوباً لأنها ترى في داخل كل منهم خنزيراً !!** وسائل الاعلام هذه تريد أن تحتفل بميلاد المسيح!! أى مسيح يقصدون؟ لاشك أنه مسيح آخر من صنع أفكارهم الدنسة يختلف كل الاختلاف عن مسيح القداسة والمحبة والطهارة الذى عرفناه وأحببناه.

آلة الاعلام الجهنمية تريد أن تخدع الجميع وتدخلهم في غيبوبة من الوهم وتقنعهم بالاحتفال على أطلال الخرائب وبالرقص على جثث الموتى. آلة تنفق الملايين لأنها تعلم أنها ستربح المليارات من أموال التعساء المخدوعين الباحثين عن لحظة غيبوبة يستريحون فيها من صرخات ضمائرهم المعذبة. آلة جهنمية احترفت بيع وشراء أجساد ونفوس الناس (رؤ ١٨:١٣).

فئة قليلة

فئة قليلة من البشر هم الذين لن تنجح هذه الآلة في خداعهم. إنهم أتباع المسيح الحقيقيون، الذين أنار الرب بصائرهم وأصبح من المستحيل أن يسقطوا في هذا الفخ القبيح وخلق لهم الإيمان أجنحة يرتقون بها فوق هذا المستنقع الآسن الذى يغوص فيه العالم. إنها فئة قليلة ولكنهم يشبهون حبات الرمال التى تعوق حركة تروس هذه الآلة الجهنمية وتجعلها تصدر في بعض الأحيان صريراً مزعجاً.

فئة قليلة يعنى لهم مرور ألفى عام أشياء مختلفة تماماً عما يعنيه للآخرين. مرور ألفى عام يعنى أن الكنيسة تباطأت جداً في إتمام مهمتها على الأرض. فهذه السنون تحفل بالكثير من الانحرافات والسقوط والدخول في عصور مظلمة مازالت الكنيسة لم تتخلص من آثارها حتى الآن. ألفان من السنين أعطاهم الرب في أناته للإنسان تحت عهد النعمة فأثبت فيهم أنه على ظلمته باقٍ وبقساوته وشره متمسك!! ألفان من السنين أظهر فيهم الإنسان شراً وقساوة لم يشهد لهم التاريخ مثيلاً من قبل. مذابح وفظائع ليست في أدغال العالم الوثنى بل في قلب أوروبا المسيحية. أية مسيحية هذه؟ إنها كيان مشوه أفرزته عصور الظلام الطويلة. كيان اختار لنفسه رأساً بخلاف الرأس المبارك الأوحد. **إن مرور ألفى سنة يثير بداخل هذه الفئة القليلة أشجاناً ودموعاً وأحزاناً مقدسة تدفعهم للمكوث في التراب والرماد أمام الله لأجل عالم هالك وكنيسة مريضة!!**

فئة قليلة تراقب علامات الأزمنة وبين أيديهم أقوال سيدهم الذى سبق وتنبأ عن كل ما يجرى في العالم اليوم. لذلك فهم لا يندهشون ولا ينخدعون بل في كل لحظة هم ينتظرون قدوم عريسهم ونهاية هذا المشهد المظلم. فئة قليلة لم تزيدهم الألفا سنة إلا حباً ليسوع وتمسكاً بشخصه وخضوعاً له. ألفا سنة لم تفتَّ في عضدهم ولم تنل من حبهم وتكريسهم لشخصه المبارك، بل كلما ازدادت الظلمة حولهم ازدادوا تمسكاً بنوره الحقيقى الذى ينير كل إنسان. وكلما سادت النجاسة حولهم ازدادوا حباً وتعلقاً بقداسته الكاملة. إنهم أتباع المسيح الحقيقيون الذين مازالوا نوراً للعالم وملحاً للأرض. لأجلهم مازالت الأرض قائمة ولم تحترق، ولأجلهم مازال غضب الله محجوزاً عن شرور الناس وآثامهم. ومازال لك فرصة للخلاص قد تكون الأخيرة في عالم تتزعزع أركانه ويوشك أن يتهاوى. فهل تقتنص الفرصة؟ هل تأتى إلى يسوع فتخلُص؟ عندئذ فقط ستكون هناك فرصة للاحتفال. ليس بمقدم ألفية جديدة، بل بمولد ابن جديد لله. آمين.

التعليم والتطبيق

كان تشارلس فنى يقول: «إن وجود التعليم الكتابى بدون وجود التطبيق العملى يمكن أن يكون أسوأ من عدم وجود تعليم على الاطلاق، بل وقد يسبب ضرراً بالغاً للسامعين» وأنا كنت أعتقد أن هذا القول يميل للمبالغة بعض الشيء، لكن بعد عدة سنوات من الخدمة في الأوساط الروحية أصبحت أنا أيضاً أردد هذا القول وأصادق عليه.

الحق يستلزم سلوكا

التعليم لمجرد التعليم هو عمل خالى من المضمون، الحق المعزول عن الحياة العملية ليس حقاً بالمفهوم الكتابى بل هو شيء آخر، شيء بلا معنى، علم اللاهوت الذى يدرسه الخدام هو مجموعة من الحقائق التى تخص الله والإنسان، وإذا ظن الخدام أنه يمكن الاكتفاء بتقديم هذه الحقائق للشعب مراراً وتكراراً بدون تغيير حقيقى في الحياة العملية يكونون قد سقطوا في فخ ردىء وقادوا شعبهم لذات الفخ.

الكتاب المقدس يمتاز عن أى كتاب آخر بأنه كتاب الحق المعلن، أى أن الحقائق المعلنة فيه ما كان يمكن اكتشافها من قِبَل أكثر العقول ذكاءً، فطبيعة الحق تفوق امكانية الاكتشاف، لقد ظلت هذه الحقائق مستترة وراء حجاب ولم يستطع أى بشر أن يكتشفها حتى تكلم رجال الله مُساقين من الروح القدس وأزاحوا هذا الحجاب، ورفع الحجاب عن الحق غير المعروف وغير القابل للاكتشاف هو ما نسميه «الإعلان الإلهى».

لكن الكتاب لم يكتف بإعلان هذه الحقائق عن الله والإنسان بل تضمن نصائح ومواعظ مؤسسة على هذه الحقائق، نصائح ومواعظ تهدف لتغيير السلوك الإنسانى، إن الجزء الأكبر من الكتاب المقدس مكرّس لدفع الناس لتعديل طرقهم وجعل حياتهم تتوافق مع مشيئة الله المعلنة على صفحاته، إنه ليس كتاب الحق المعلن فقط بل كتاب الحق المعلن والمنفّذ عملياً أيضاً!!

ينبغى أن ندرك أن الإنسان لا يصير في حال أفضل إذا عرف أن الله في البدء خلق السموات والأرض، فإبليس يعرف هذا جيداً!! والإنسان لا ينال الحياة الأبدية إذا عرف أنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لفداء البشرية، ففى الجحيم ملايين يعرفون هذا!! الحقائق اللاهوتية لا فائدة منها حتى تُطاع عملياً وتغير سلوك الإنسان جذرياً، ينبغى أن يدرك الخدام أن الهدف الحقيقى من تقديم الحق الكتابى هو تحقيق سلوك عملى أنقى وأقدس.

قلعة الإرادة

الأمر الذى لا ينبغى أن نغض الطرف عنه هو أن الحق المعلن في الكتاب هو حق عملى، إنه لا يستهدف الذهن فقط بل الإرادة أيضاً، إنه مقدم للإنسان كله ووصاياه لا يمكن تنفيذها إذا قبلناها بأذهاننا فقط، الحق يستهدف اقتحام قلعة القلب الإنسانى، أى إرادته، ولن يهدأ حتى يمتلكها بالتمام!!

فالإرادة العاصية ينبغى أن تخضع للحق وتلقى سلاحها وتكف عن المقاومة، وتتعلم كيف تقبل أوامر الحق وتنفذها بفرح، أما إذا ظلت الإرادة عاصية فإن أية معرفة للحق عندئذ تصبح غير مجدية.

وربما أكثر أجزاء الكتاب استخداماً لصنع قديسين مزيفين هو رسائل الرسول بولس!! لقد حذرنا الرسول بطرس بأن غير المتعلمين وغير الثابتين سيفسرون كتابات بولس لهلاك أنفسهم، ونحن نحتاج فقط إلى زيارة قصيرة لأحد مؤتمرات درس الكتاب والاستماع لبعض المحاضرات لكى نفهم ما قصده بطرس!! دراسات دقيقة لكتابات الرسول بولس تُقدم بدون أى تغيير حقيقى في حياة السامعين أو المتكلمين، كلمات دسمة وحقائق ثمينة مع حياة هزيلة وسلوك عقيم، لقد عكف الخدام على ترديد الحقائق دون أن يتركوا لدى السامعين الإحساس بأى التزام أدبى أو روحى.

ما هو السبب ؟

أحد أهم أسباب الفصل بين الحق والحياة هو عدم رغبة الخادم في إثارة المشاكل حوله!! فتعليم بدون تطبيق لا يثير أية مشاكل أو مقاومة، فالإنسان يبدأ في المقاومة حين يشعر أن الحق المقدم إليه ينبغى اقتحام إرادته، لكن إذا كان الخادم يقدم إليه حقاً بمعزل عن الحياة العملية فسوف يحضر إلى الكنيسة ويدعمها بماله بدون اعتراض، طالما ظل الحق «شعر أشواق لجميل الصوت يحسن العزف» فسوف نجد كثيرين يملأون الكنائس ويرحبون بخدمتنا العقيمة!!

معظم الخدام يريدون أن يرضى الناس عنهم لذلك فهم يقدمون تعليماً فقط، دون أن يشيروا للشعب على أخطاء السلوك والحاجة إلى التغيير وضرورة التوبة والرجوع إلى الله!!

على الجانب الآخر نجد أن الخادم الحقيقى لله هو الذى يعلّم بالحق ويطبّقه على حياة سامعيه، قد يشعر بمقاومة ويجتاز في أوقات صعبة لكنه سيختبر رضا الله عليه، ليت الله يقيم لنا كثيرين من أمثال هؤلاء الخدام، فالكنيسة اليوم تحتاجهم بشدة.

- ٣٠ -

موهبة النبوة

"جدُّوا للمواهب الروحية وبالأولى أن تتنبأوا" (١ كو ١:١٤)

النبى هو الشخص الذى يعرف أن يميز الوقت الذى يعيش فيه ويعرف ما يريد الله أن يقوله لشعبه في ذلك الوقت بالذات.

الله يتكلم إلى كنيسته في كل مرحلة من مراحل تاريخها بما يتفق مع جهالتها الروحية والأدبية وبما يسدد احتياجها في تلك المرحلة بالذات، لكن للأسف فإن معظم خدامنا لا يدركون هذا ويستمرون في تقديم خدماتهم بصورة ميكانيكية بدون فهم للأوضاع الروحية السائدة حولهم، وهم بذلك ليسوا أفضل من الكتبة والفريسيين في أيام الرب يسوع له المجد، الذين عكفوا على ترديد تعاليم الناموس مثل الببغاء، بدون فهم للوضع الروحى والاحتياج الحقيقى للنفوس المحيطة بهم، لقد عكفوا على تقديم نفس الكلام لكل الناس في كل الأوقات دون أى تمييز، ودون أن يعلموا أن هناك رسالة محددة يريد الله أن يقدمها للشعب في هذا الوقت بالذات.

إن الأنبياء لا يمكن أن يرتكبوا هذا الخطأ الذى يقع فيه معظم خدامنا، إنهم لا يمكن أن يضيّعوا مجهوداتهم بهذا الشكل، إنهم دائماً يتكلمون بما يتفق مع الحالة التى عليها شعبهم في كل وقت بذاته.

وفي يومنا هذا نحن في أمسُ الحاجة إلى خدام لهم هذه الخدمة النبوية، ونحن لا نقصد بالخدمة النبوية القدرة على التنبؤ بأحداث مستقبلية، بل نقصد العين الروحية المفتوحة التى لها القدرة على اختراق الوضع الروحى المحيط بنا وفهمه بعمق وشرحه وتفسيره للشعب، إننا نحتاج إلى كلام الحكمة الممسوح بالروح القدس وإلى روح التمييز التى تفصِّل لنا ما يدور حولنا، إننا بحاجة إلى خدام لديهم القدرة على رؤية الوضع الروحى كما يراه الله، ولديهم القدرة على نقل هذه الرؤية إلينا.

النشاط الدينى اليوم أكثر من أى وقت مضى: خدمات كثيرة ومتنوعة، صحافة دينية متطورة، برامج إذاعية واسعة الانتشار، شرائط كاسيت وفيديو تنقل الخدمات إلى كل مكان في الأرض، وكل هذا جيد ورائع، ولكن ما يزعجنى فعلاً هو أنه في وسط كل هذا النشاط قلما تسمع صوتاً واحداً يخبرنا بفكر الله الحقيقى تجاه كل ما يجرى!!

• أين هو الإنسان الذى يستطيع أن يخترق ببصره الروحى كل هذه المظاهر الصاخبة ويكتشف لنا إلى أين يتجه الموكب؟! وما هى الدوافع الحقيقية لهذا النشاط المتزايد ومَنْ هو القائد الحقيقى له؟!

إننا لا نريد خادماً ينقل إلينا ما يراه من أحداث جارية حولنا لكننا نريده أن يشرح لنا **لماذا** تجرى الأمور بهذا الشكل!! إننا نحتاج إلى خدام لديهم القدرة على اختراق الأحداث الخارجية والوصول إلى الجذور والأهداف الحقيقية. إن السؤال ليس **هو ماذا يحدث** بل **لماذا يحدث!!** لكن للأسف فإن أحداً من خدامنا ليس لديه الإجابة لأن أحداً منهم لم يسأل هذا السؤال أصلاً!! لقد اعتدنا أن نتناقل الأقوال والأخبار دون أن نفهم شيئاً مما يجرى وراء الأحداث، لقد اعتدنا أن نسلِّم بصحة الوضع الروحى السائد دون أن نسأل أو نبحث عما يراه الله، تماماً كما كان الحال وقت حياة يسوع على الأرض عندما كان الشعب يسلِّم بصحة الوضع الدينى السائد آنذاك رغم أن الله كان يرى شيئاً مغايراً تماماً!! إن شعبنا اليوم يشاهد أنشطة كثيرة لكنهم لا يعلمون ماذا تنطوى عليه هذه الأنشطة ولا بماذا يحكم الله على هذه الأنشطة.

إننا نحتاج إلى النظرة النبوية

إن احتياجنا الماس اليوم هو إلى النظرة النبوية، المؤرخون يستطيعون أن يفسروا لنا الماضى ولكننا نحتاج إلى أنبياء ليفسروا لنا الحاضر!! البحث والدراسة قد يمكّنان الإنسان من الحكم على أحداث الأمس لكن موهبة النبوة فقط هى التى تمكّنه من الحكم على أحداث اليوم!! بعد مائة عام من الآن يستطيع المؤرخون أن يعرفوا ماذا كان يجرى في أوساطنا الدينية في يومنا هذا، لكن عندئذ سيكون الوقت قد تأخر جداً بالنسبة لنا، فنحن ينبغى أن نعرف هذا الآن!!

لو أردنا أن تنهض كنائسنا من جديد فهذا ينبغى أن يتم بوسائل أخرى غير تلك المستخدمة الآن، وسائل روحية نازلة من فوق، لو أردنا للكنيسة أن تُشفى من جراحها التى أصابتها في الماضى فينبغى أن تبرز وسطنا نوعية جديدة من الخدام، فلم تعد تكفى نوعية الخدام التى تؤدى عملها بميكانيكية وروتينية ولا يبحثون عن شئ أكثر من هذا، ولم تعد تُجدى نوعية الرعاة ذوى الكلام الناعم الذين يعرفون كيف يستميلون السامعين بكلام مهادن خالٍ من المعنى، كل هؤلاء قد وُزنوا بالموازين فوُجدوا ناقصين!!

نوعية أخرى من الخدام ينبغى أن تنشأ بيننا، نوعية تشبه أنبياء الله في القديم، نوعية ترى رؤى الله وتسمع صوتاً من فمه، نوعية لا تهادن أحداً على حساب الحق، نوعية تحب يسوع والنفوس إلى الحد الذى يقبلون فيه الموت من أجل مجد يسوع وخلاص النفوس الثمينة على قلبه.

- ٣١ -

الغربة الداخلية

كلما سعى المؤمن في طريق القداسة شعر بالغربة الداخلية عن كل المحيطين به، هذا الإحساس بالغربة هو أحد بنود التكلفة التى ينبغى أن ندفعها ثمناً لسعينا نحو القداسة الحقيقية.

كل القديسين الذين نقرأ عنهم في الكتاب كانوا غرباء في أجيالهم، مثل أخنوخ ونوح اللذين وجدا نعمة في عينىّ الرب وسارا أمامه، كان كل منهما وحيداً في جيله، وإبراهيم رغم أنه كان محاطاً بسارة ولوط والعديد من العبيد لكننا لا نقرأ أن الرب تكلم معه ولو مرة واحدة وهو في وسط جماعة، دائماً كانت معاملات الله معه بعيداً عن عيون الجميع.

موسى أيضاً كان إنساناً وحيداً، في قصر فرعون كان يشعر بالغربة عن هذا البيت، وعندما هرب عاش وحيداً يرعى الغنم في البرية، وفي وحدته هناك رأى العليقة المشتعلة، وفيما بعد في برية سيناء، نراه ينعزل عن بقية الشعب ويصعد وحده إلى الجبل المضطرم وهناك يختفى داخل الدخان والنار.

باختصار نقول إن كل أنبياء العهد القديم رغم اختلافهم عن بعضهم البعض في أشياء كثيرة إلا أنهم اشتركوا في شىء واحد، وهو غربتهم الداخلية المفروضة عليهم، لقد أحبوا الشعب وتمسكوا بإيمان الآباء، لكن أمانتهم لله وغيرتهم على خير الأمة أدت إلى انعزالهم عن بقية الشعب والدخول في فترات طويلة من التثقل والمعاناة، حتى صاح واحد منهم معبراً عن لسان حالهم: «صرت أجنبياً عند إخوتى وغريباً عند بنى أمى، لأن غيرة بيتك أكلتنى وتعييرات معيريك وقعت علىّ» (مز ٦٩:٨، ٩).

لكن أكثر الجميع تجسيداً للقداسة الحقيقية وتعبيراً عن الغربة الداخلية كان ذاك الذى ظل وحيداً طوال حياته وحتى موته على الصليب، شخص الرب يسوع له المجد الذى كانت غربته عميقة جداً حتى إن مزاحمة الجموع الغفيرة له من الخارج ما كانت لتشفى غربته الداخلية!! كم قضى الساعات الطويلة في جوف الليل على الجبل يصلى، كانت هذه ساعات راحته وشبعه في شركة حقيقية مع الآب بعيداً عن عيون الناس، وعندما حمل الصليب تركه الجميع وهربوا، وسار إلى الجلجثة وحيداً، وعندما أسلم الروح كانت الظلمة تكتنفه وتحجبه عن عيون الواقفين، وهناك في القبر كان وحيداً، وعندما قام في فجر الأحد لم تره عين وهو يخرج من القبر. **فهذه المواضع المقدسة من حياته المباركة ما كان يمكن أن تراها عين سوى عين الآب.**

وهكذا الأمر مع كل مؤمن يريد أن يحمل صليبه ويتبع سيده، لابد أن يعانى من الوحدة والاغتراب في وسط عالم لا يتبع السيد، **وتذكّر دائماً أنك لا تستطيع أن تحمل الصليب وتظل في شركة مع العالم، إن حمل الصليب يجعل الإنسان منفرداً لأنه لا يوجد مَنْ يحب أن يكون صديقاً لإنسان يحمل صليباً!!**

غربة اضطرارية

لقد خلقنا الله وفي طبيعتنا ميل للشركة مع الآخرين، أى إن الرغبة في المشاركة الإنسانية هى رغبة طبيعية ومشروعة، لذلك فالعزلة التى يشعر بها المؤمن هى عزلة اضطرارية وليست اختيارية، إنه يتمنى أن يجد مَنْ يشاركونه اختباره واشتياقاته ولكنه لا يجد فيضطر أن يمضى وحده، إنه يسير مع الله في وسط عالم لا يسير مع الله، ولذلك فمساره يقوده بعيداً عن شركة العالم وأحياناً عن شركة بقية المؤمنين!!

المؤمن الذى يختبر اختباراً روحياً عميقاً لن يجد كثيرين يفهمونه، قد يجد بعض «الصحبة» أثناء اشتراكه في الممارسات والخدمات الدينية، لكن الشركة الروحية الحقيقية تبقى بعيدة المنال، ولا ينبغى أن يتوقع شيئاً بخلاف هذا، فهو غريب وسائح، والرحلة التى يسيرها لا يسيرها بقدميه بل بقلبه، فهو يسير مع الله في أعماق نفسه، ومَنْ يستطيع أن يدخل إليه في أعماق نفسه سوى الله؟ إنه يمتلك روحاً مختلفة عن بقية المؤمنين الذين يجلسون بجواره في بيت الرب، لقد رأى هو ما اكتفوا هم بالسماع عنه، لقد تلامس بقلبه مع ما اكتفوا هم بالكلام عنه، ولذلك فهو يمشى بينهم صامتاً كما فعل زكريا بعد رجوعه من نوبة خدمته في الهيكل وقال عنه الشعب: «قد رأى رؤيا في الهيكل»!! إنه لا يجد مَنْ يتحدث معه عما يعتبره الموضوع الأساسى الذى ينبغى أن يستقطب كل الاهتمام، شخص الرب له المجد، وبدلاً من ذلك يجد المؤمنين يتحدثون في أمور كثيرة لا طائل من ورائها، لذلك فهو يبقى صامتاً ومشغول البال في وسط ضجيج الأحاديث الدينية، وقد ينعته البعض بالكبرياء، أو بتبلد الإحساس أو ادعاء الوقار، وفي النهاية يجد نفسه منعزلاً داخلياً عن الجماعة، ولكنها عزلة لم يسعَ إليها بل فُرضت عليه اضطراراً.

فوائد الغربة الداخلية

هذه العزلة الداخلية نفسها تدفع المؤمن إلى الاقتراب أكثر من الله، عدم قدرته على إيجاد رفقة بشرية تدفعه لأن يجد في رفقة الله ما لم يجده في أى مكان آخر، أو كما قال داود «إن أبى وأمى قد تركانى والرب يضمنى»، عندما لا يجد مَنْ يشاركهم في آلامه وهمومه فإنه يرجع إلى الله ويتعلم كيف يسكب قلبه هناك، إنه يتعلم في عزلته الداخلية ما لا يستطيع أن يتعلمه في وسط الجموع وهو أن المسيح يستطيع أن يكون لنا الكل في الكل، لقد صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء.

- ٣٢ -

ثلاث درجات للمعرفة الروحية

هناك ثلاث درجات للمعرفة الروحية: **المعرفة التى نحصل عليها بواسطة البحث والدراسة للعلوم الطبيعية، والمعرفة التى نكتسبها ونمارسها بواسطة الإيمان، والمعرفة التى نأخذها بواسطة الإعلان والاختبار الروحى**، وهذه الدرجات الثلاث تماثل أجزاء الهيكل الثلاثة: الدار الخارجية والقدس وقدس الأقداس.

هناك في الداخل، في أعمق مكان، وراء الحجاب الثانى، كان يوجد أقدس مكان في الأرض، **قدس الأقداس**!! فيه كانت قطعة أثاث واحدة هى تابوت العهد، والكروبيم يظللان كرسى الرحمة الذى هو غطاء التابوت، ومن بين أجنحة الكروبيم المنبسطة كانت تتقد نار محضر الله المبهرة، تلك التى نسميها «الشكينة».

لا يدخل أى نور طبيعى - مثل نور الشمس أو القمر - إلى هذا المكان المقدس، فقط هناك الإشراق الطاهر لذاك الذى هو نور وليس فيه ظلمة البتة، وإلى هذا المحضر المقدس لا يستطيع أحد الدخول إلا رئيس الكهنة مرة واحدة كل سنة وليس بلا دم.

وإلى الخارج من هذا المكان المرهب، وخلف الحجاب الثقيل كان هناك **القدس**، مكان مقدس بالحق وإن كان بعيداً عن محضر الله الحقيقى، وهذا المكان كان متاحاً لكل كهنة إسرائيل، وهنا أيضاً **لا يدخل نور الشمس والقمر**، كان النور ينبعث من المنارة الذهبية بأفرعها السبعة، **إن نورها ليس نوراً طبيعياً وإن كان في نفس الوقت ليس إلهياً، بل الإنسان هو المسئول عن إشعاله وإبقائه مشتعلاً!!**

وهناك في الخارج كانت **الدار الخارجية** حيث مذبح النحاس والمرحضة، وهذه الساحة كانت بلا سقف، مفتوحة **لاستقبال النور الطبيعى**.

كانت كل الأجزاء مرتبة من الله لكن عمق معرفة الإنسان وعبادته تزداد كلما تعمّق إلى الداخل، من الدار الخارجية إلى قدس الأقداس، من نور الطبيعة إلى كروبى المجد والنار المحرقة التى تتقد بين أجنحتها المنبسطة.

من الطبيعة إلى الاختبار

الطبيعة هى معلم عظيم، وعند أقدامها يمكن أن نتعلم الكثير من الأشياء المفيدة والصالحة، بل من خلالها نستطيع أن نصل إلى بعض المعرفة عن الله وأموره غير المنظورة، والكتاب يقول لنا هذا: «السموات تحدِّث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه» (مز ١٩:١) «**اذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأمل طرقها وكن حكيماً**» (أم ٦:٦) «انظروا إلى طيور السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوى يقوتها، ألستم أنتم بالحرى أفضل منها» (مت ٦:٢٦) «إذ **معرفة الله** ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم، لأن أموره غير المنظورة تُرى منذ خلق العالم مُدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر» (رو ١:١٩، ٢٠).

لكن هناك معرفة أعمق وأسمى من تلك التى نستقيها من ملاحظة أمور الطبيعة، إنها المعرفة التى نقبلها **بالإيمان**، فالوحى الإلهى من خلال الكلمة المكتوبة يقدم لنا حقائق تقع بالكامل خارج نطاق قدرة الذهن البشرى على الفهم والاستيعاب، ولا تخضع لمقاييس الاكتشاف والاستنتاج التى تخضع لها قوانين الطبيعة.

ومع ذلك فالذهن ليس مُستبعداً تماماً في هذه النوعية من المعرفة، فهو يستطيع أن يعمل على أساس هذه الحقائق بعدما يقبلها بالإيمان ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى هذه الحقائق بنفسه، فلا توجد وسيلة علمية معروفة للإنسان يستطيع بها أن يعرف أن الله خلق في البدء السموات والأرض، أوأن هناك ثلاثة أقانيم في جوهر اللاهوت، أو أن طبيعة الله هى المحبة، أو أن المسيح مات من أجل خطايانا أو أنه يجلس الآن عن يمين العظمة في الأعالى. كل هذه المعرفة ينبغى أن نقبلها بالإيمان لأن الذهن لا يستطيع أن يصل إليها بنفسه من خلال الملاحظة والاستنتاج، وإن كان يستطيع أن يتحرك من خلالها بعدما يقبلها بالإيمان.

لكن هناك معرفة أعمق وأسمى من هذه المعرفة أيضاً، إنها المعرفة التى نحصل عليها بواسطة **الاختبار الروحى المباشر**، في هذه المعرفة تحتوى في ذاتها على مصداقيتها ويقينيتها، لا تحتاج إلى إثبات من الخارج لأنها مستمدة بالكامل من الله في داخل أعماق الإنسان، الروح القدس يأتى بروح الإنسان إلى اتصال مباشر مع حقائق روحية سامية، حيث يذوق قوات الدهر الآتى وتصير له شركة روحية واعية مع الله غير المنظور.

هذه المعرفة السامية تُختبر ولا تُكتسب، لا يمكن استنتاجها بل ينبغى اختبارها، إنها ليست مجموعة من الحقائق التى يمكن تعلمها بل هى حق حى يعيش في الأعماق، الشخص الذى ينال هذه المعرفة يصبح الله بالنسبة له ليس «استنتاجاً» أتى من حقائق طبيعية أو حتى مجموعة من «الحقائق» التى يتكلم عنها الكتاب المقدس، بل هو إله حى يتعامل معه حق المعاملة، بل يمكننا أن نقول إن هذا الشخص قد «التقى» بالله!!

ولعل الرب قال كل هذا ببساطة أكثر عندما قال «الذى يحبنى يحبه أبى وأنا أحبه وأُظهر له ذاتى» (يو ١٤:٢١) إن الرب يشتهى أن يُظهر ذاته لنا، وأى شىء في الوجود أعظم من هذا!!

- ٣٣ -

قانون البرية

> «ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك» (تك ٣: ١٧)

خلق الله الإنسان ليعيش في الجنة، ولكن بسبب الخطية نزل ليعيش في البرية، وللبرية قوانينها التى تختلف عن قوانين الحياة في الجنة، فلكى يأكل ثمراً في البرية ينبغى أن يقاوم باجتهاد كل عوامل الموت والبوار، وبالعرق والدموع يفلح الأرض مراراً وتكراراً، ويسهر عليها باستمرار لكى يُبعد عنها الحشرات الضارة والحشائش الخبيثة، أما إذا قرر أن يعطى لنفسه بعض الراحة وكفّ عن رعاية الأرض التى أصلحها فإن البرية سوف تلتهم أرضه مرة أخرى وتحولها إلى قفر مجدب، وسرعان ما تنبت فيها النباتات الضارة والأشواك التى تبتلع كل مجهوده الذى بذله في إصلاح الأرض!!

إن كل فلاح يعرف هذه الحقيقة، فمهما كانت المجهودات التى بذلها في إعداد حقله فلا يمكن أن يعطى لنفسه أية راحة، لأنه يعلم أنه إذا أهمل الأرض لبعض الوقت فسوف تعود فوراً إلى الجدب والبوار، **فميل الطبيعة في هذه الأرض الملعونة هو إلى البوار وليس إلى الازدهار!!** وهذا هو ما نسميه قانون البرية الذى يتحكم في عالم المادة.

وفي عالم الروح أيضاً !!

إن ما يجرى في عالم المادة هو مثال لما يجرى في العالم الروحى، فقانون البرية الذي يتحكم في الأرض المادية يتحكم أيضاً في أرض قلوبنا الروحية!! إنه القانون الذى يسعى لحفظ كل القلب في حالة البوار أو العودة به إلى البوار إذا نجح في الازدهار لبعض الوقت!! إن ما هو حق بالنسبة للحقول المادية هو حق أيضاً بالنسبة لحقول أرواحنا، هذا إذا كنا فقط نستطيع أن نرى الحق!!

إن هذا العالم الساقط لا ينحاز بالطبيعة إلى الله بل إلى كل ما هو مضاد لله، وإذا تركنا قلوبنا دون رعاية لبعض الوقت فلابد أن نجدها قد انجرفت مبتعدة عن الله وقد نبت فيها كل نبت ردىء، يكفى أن نترك أرواحنا بدون اهتمام لبعض الوقت حتى نجدها في مكان آخر بخلاف عرش الله، هذا هو قانون العالم الساقط الذى نعيش فيه.

إن كل مؤمن حديث ينبغى أن يتعلم هذا الدرس منذ البداية، فإننا في بعض الأحيان نترك لدى المؤمن الحديث انطباعاً بأنه سيجد كل شيء ميسوراً وسهلاً بمجرد قبوله للمسيح، ودون أن نلفت نظره إلى ضرورة السهر المتواصل والاجتهاد المستمر لحفظ نفسه من كل شر، وهذا القصور في التعليم يكون سبباً في أن المؤمنين الجدد يتعثرون كثيراً ويسقطون بل وقد يرتدون.

إن الحق هو أنه لا يوجد اختبار روحى مهما كان عظيماً يمكن أن يعصمنا من التجربة. وما هى التجربة إلا محاولة البرية لاستعادة المنطقة المزروعة حديثاً في قلوبنا ؟!! إن القلب النقى هو هدف للشيطان ولكل قوى هذا العالم الهالك، وهذه القوى لن تهدأ حتى تنجح في استعادة ما فقدته، وكل نبت شيطانى سيزحف محاولاً أن يبتلع المنطقة الصغيرة التى تحررت بقوة الروح القدس، وفقط بالسهر المستمر والصلاة المتصلة يمكننا أن نحفظ هذه المكاسب الروحية التى حصلنا عليها بنعمة الله.

احذر من الإهمال

إن القلب المُهمَل سيُصبح حالاً مُمتلكاً من شهوات العالم، والذهن المُهمَل سيصبح حالاً مرتعاً لكل فكر خبيث، والكنيسة التى لا تجد مَنْ يحميها بشفاعة مستمرة ومخاض مستمر لابد أن تصير مسكناً لشياطين ومحرساً لكل طائر نجس وممقوت (رؤ ١٨: ٢) والبرية الزاحفة لابد أن تلتهم هذه الكنيسة التى وثقت في قوتها ونسيت أن تسهر وتصلى!!

إن قانون البرية يتحكم في الخليقة كلها في هذا العالم الساقط سواء في المجال المادى أو الروحى، كل الأشياء تميل بالطبيعة إلى العودة للبوار والفناء، لذلك فمَنْ الخطأ أن نربح نفوساً للمسيح ثم نتركهم بلا رعاية كافية ولا تعليم صحيح ولا شركة مؤمنين صحية، إن هذا العمل يشبه أن تأتى بمجموعة من الحملان وتتركهم في وسط البرية بلا راع، أو أن تقتنى حقلاً ثم تتركه تحت رحمة الطبيعة تفعل به ما تشاء، ما هذا إلا مضيعة للوقت وتبديد للجهد وخسارة لما سبق وامتلكناه.

ينبغى أن نأخذ قانون البرية في اعتبارنا دائماً ونحذر من الإهمال، فالحملان ينبغى أن تجد رعاية كاملة وإلا ستموت حتماً، والحقل الذى امتلكناه في قلوبنا بنعمة الله ينبغى أن نفلحه ونحفظه باستمرار وإلا سيقتنصه العدو ويعود به إلى البوار مرة أخرى.

خدمة الليل

- ٣٤ -

"لك النهار ولك أيضاً الليل" (مز ٧٤: ١٦)

لو اخترت أن تكون مؤمناً ناضجاً فينبغي أن تتوقع أن الله سيخُصك بتلمذة أكثر صرامة وبمعاناة أشد من تلك التي يلقاها أي مؤمن آخر لم يطلب طريق النضوج الروحي، سيجيزك الله في أوقات حالكة كالليل لكنك ستخرج منها أكثر نضجاً وأشد صقلاً.

لو اخترت أن تكون مؤمناً ناضجاً فلن يكون الله «رقيقاً» معك في كل الأوقات كما اعتدت عليه من قبل، فالنحات البارع لا يستخدم قلامة الأظافر لكي يشكّل قطعة الحجر القاسية ويصنع منها تمثالاً جميلاً، بل هو يستخدم المنشار والمطرقة والأزميل، إنها أدوات قاسية لكن بدونها ستظل الصخرة القاسية بلا جمال إلى الأبد.

إذا اخترت أن تكون مؤمناً ناضجاً فلابد أن تتوقع أن معاملات الروح معك ستكون مختلفة عن معاملاته مع إخوتك المؤمنين، وبالتالي ستجد نفسك قد أصبحت مختلفاً عنهم، هم سعداء بينما أنت حزين، هم يتحدثون عن اختبارات الفرح والسلام وأنت تجتاز اختبارات الألم والتجرُّد، هم يفرحون بمحبة الله وإحسانه وأنت تستشعر الضغط والشدة، لكن ثق!! فكل هذا سيؤول لنضجك الروحي، وبينما يظل المؤمنون الذين رفضوا طريق الألم على رمال الشاطئ، ستختبر أنت نهر السباحة الذي لا يُعبر.

خدمة الليل

في الليل سيأخذ الله من قلبك كل محبة غريبة، سيجرِّدك من كل ما تثق فيه وتتكل عليه، وحيث اعتدت أن تضع كنوزك ستجد أكواماً من الرماد!! إنه لن يأخذ منك «الأشياء»، ولكنه سيعلمك ألا تضع قلبك عليها، **إنه وحده القادر أن ينزع الأشياء من قلوبنا بينما هي مازالت في أيدينا!!** إنه سيتركك تمتلك كل شيء، ولكنه سيجعل قلبك غير مستمتع أو مكتفٍ بأي شيء، كل هذا لكي يحرر قلبك من قيد الأرضيات ويطلقه لكي يُحلق معه في السماويات، سيملأ قلبك بجوع وعطش نحو الأمور الأبدية، في الليل ستكتشف فراغ العالم وعجزه عن إشباع قلبك، وستنشأ بداخلك طلبة نحو شخص الله نفسه، وهذه أولى الخدمات التي يسديها لنا الليل!!

في الليل أيضاً ستتعلم كيف تتحرك بالإرادة عندما تكون مشاعرك مرهقة عاجزة، وستتعلم أيضاً أن تتحرك بالإيمان لأنك أحياناً لا تستطيع أن تبصر الخطوة القادمة من شدة الظلام، **ووقتها ستتعلم أن الإيمان الحقيقي موجود في الإرادة وليس في المشاعر الحماسية!!** وهذه خدمة ثانية لليل.

في الليل ستكتشف محبة الله بصورة أعمق وإن كانت أبطأ!! بصورة حقيقية بعيداً عن العواطف المتأججة التي طالما ضخّمت الأمور وأكسبتها حجماً أكبر من حجمها الحقيقي.

في الليل ستتعلم ما هو الطريق الضيق الكرب وكيفية السير فيه، سيدفعك الله للدخول فيه لأنك ستجده الطريق الوحيد المفتوح أمامك، وهناك ستتعلم أن تتيقن من مركزك السماوي كابن لله حتى وأنت تعاني وتتألم. وستتعلم كيف تجعل المشاعر تأتي وتذهب دون أن تؤثر على وجودك أمام الله.

في الليل ستتعلم قدرة الألم على التنقية والتحرير والاتضاع، في الليل ستتعلم أن الألم يستطيع أحياناً أن يفعل ما لا يستطيع الفرح أن يعمله.

في الليل سوف تبدأ نظرتك للناس والأشياء تكون أكثر نضجاً وشمولاً، ستتعلم أن تنظر لأي أمر بتأني ومن جميع الزوايا، ستتعلم أن تنظر كما ينظر الله.

وخلاصة القول إن الله يدخلنا إلى الليل لكي يعلمنا ما لا تستطيع كل مدارس العالم أن تعلمنا إياه. إن الليل في سلطان الله مثل النهار، ولقد سخَّر الله الليل لخدمتنا مثل النهار تماماً.

حدود الليل

لكن هناك حدود لقدرة الإنسان على احتمال الليل، فحتى أقسى المعادن تتحطم لو ظلت لفترات طويلة تحت ضغط متواصل، والإنسان لا يستطيع أن يعيش طويلاً بدون راحة أو سرور، حتى يسوع استطاع أن يحتمل الصليب مستهيناً بالخزي لأجل «السرور» الموضوع أمامه، والله إلهك يعلم بالضبط مقدار الضغط الذي تستطيع أن تحتمله، لذلك فهو لابد أن يمنح نفسك تعزية مناسبة من وقت إلى آخر لكي تستطيع أن تواصل السعي حتى يكمل وقت وجودك في هذا الليل.

ووقت وجودنا في الليل يتوقف على عدة عوامل، بعضها يتوقف عليك وينبغي أن تكون أميناً لكي ينتهي الليل بسرعة، ولكن بعضها آخر قد يبقى سراً في إرادة الله، وعندئذ ينبغي أن تسلم أمرك لحكمة الله التي تحدد لك مدى وجودك في الليل.

كلما تقدمنا في الحياة المسيحية وارتقت أرواحنا إلى مستويات أعلى واجهنا صعوبات أكبر وقابلنا مقاومة متزايدة من عدو نفوسنا، ورغم أن هذا الحق لا نحب أن نتحدث عنه إلا أنه يظل حقاً يختبره كل مؤمن أمين، وإذا لم نتعلم كيف نستفيد منه سنعثر به ونسقط!!

إن إبليس يبغض المؤمن لعدة أسباب، **أولها هو** أن الله يحب المؤمن، وكل ما يحبه الله لابد أن يبغضه إبليس، **والثانى هو** كون المؤمن ابناً لله يجعله يحمل ختم الله على جبهته، وغيرة إبليس القديمة لم تخمد وبغضته وحسده لله لم تنته، وكل ما يحمل ختم الله هو هدفه لبغضته المميتة.

السبب الثالث هو أن المؤمن الحقيقى هو عبد سابق لإبليس تمرد على قيوده وهرب من عبوديته، وإبليس لا يمكن أن ينسى له هذه الإهانة!!

والسبب الرابع هو أن المؤمن الأمين المصلى هو تهديد مستمر لاستقرار مملكة إبليس، المؤمن الأمين هو ثائر مقدس يتحرك في مملكة إبليس لحساب مملكة الله!! ولذلك هو في نظر إبليس خائن ينبغى التخلص منه.

إبليس لا يعرف قط من أين سيأتيه الخطر!! لا يعرف متى سيبرز له إيليا آخر أو دانيال جديد!! ولا يدرى من أى اتجاه سيخرج له «مودى» آخر أو «فنى» جديد يحرر مدينة كاملة أو يقود مقاطعة بأكملها للمسيح!! مثل هذه الأخطار أصعب من أن يحتملها إبليس، لذلك فهو يقاوم المؤمن الحديث مبكراً بقدر الإمكان لكى يمنعه من أن يصبح خطراً مخيفاً!!

لذلك يصبح المؤمن بمجرد معرفته للرب هدفاً رئيسياً لسهام إبليس الملتهبة، فإبليس يعلم أن أفضل طريقة للتخلص من محارب ما هى أن يقتله قبلما يصبح محارباً!! فموسى الرضيع ينبغى أن يُلقى في البحر ويموت لكى لا يكبر ويصبح قائداً بطلاً لأمة بأكملها إلى الحرية!! والطفل يسوع ينبغى أن يُقتل بحد السيف لكى لا يصير رجلاً يفدى العالم كله!! إبليس يسعى لكى يفسد حياة المؤمن مبكراً لكى لا ينمو، أو على الأقل ليكون نموه ناقصاً فيصبح قزماً لا يشكّل أى خطر لإبليس فيما بعد!!

ليس جسدياً بل روحياً

أنا لا أعتقد أن إبليس يهتم كثيراً بأن يدمر حياة المؤمن جسدياً، فالجندى الذى يموت في أثناء المعركة يُعتبر موته عملاً بطولياً يشحذ الهمم، لذلك فموته لا يُعتبر هزيمة للجيش بل على العكس قد يُعتبر مادة لافتخار دولته وأسرته، لكن الجندى الذى لا يستطيع أو لا يريد أن يحارب بل يهرب عند أول رصاصة يطلقها العدو فهذا هو الذى يمثل خسارة للجيش وعاراً لدولته وأسرته.

لذلك فالمؤمن الذى يموت جسدياً في سبيل الإيمان لا يعتبر موته هزيمة لمملكة الله ولا يمثل انتصاراً لإبليس، لكن عندما يكون المؤمنون جبناء خائفين من القتال أو مرفهين لا يستطيعون القتال فهذا هو العار كل العار، وهذا ما يجعل إبليس يبتسم ابتسامة المنتصر ويجعل وجه الكنيسة يحمرُّ خجلاً!!

لذلك فاستراتيجية إبليس الرئيسية من جهتنا نحن المؤمنين ليست أن يقتلنا جسدياً (حتى لو تمنى هذا في بعض الأحيان!!) لكن أن يحطم قدرتنا الروحية على دخول الحرب ضده، وكثيراً ما نجح في هذا!! لقد نجح إبليس في أن يجعل المؤمن «مستأنساً» لا يمثل أى تهديد حقيقى لمملكة الشر!! جعله طفلاً ضعيفاً لا يقوى على ارتداء أسلحة المعركة، فرخ نسر مريضاً لا يستطيع أن يحلق بأجنحته، سائحاً منهوك القوى كفَّ عن السعى وجلس بجانب الطريق يحاول أن يحصل على أى عزاء من استنشاق الزهور الذابلة التى التقطها في مشواره السابق!!

كيف نجح إبليس في هذا؟! كيف جرَّد هؤلاء المؤمنين من قواهم؟! **لقد التقاهم مبكراً!!** قد يكون بواسطة تعليم خاطئ، أو تعليم ناقص، أو من خلال الإحباط الذى أصابهم من كنيسة فاترة منقسمة، لكن أياً كانت الوسيلة لقد نجح في إضعاف عزيمتهم وتحييد آمالهم واستئناس طموحاتهم الحماسية الأولى، والآن هم مجرد «أعداد» يتم إحصائهم أو «أسماء» في كشوف كنائسهم، أو «تحفاً» يحرص الخدام أن يزينوا بهم اجتماعاتهم!!

وإذا كان إبليس يقاوم المؤمن الحديث فهو بالحرى يقاوم بشراسة أكثر المؤمن الأمين الذى يسعى ويقاوم للوصول إلى قامة أعلى في المسيح، إن الحياة المملوءة بالروح ليست حياة سلام وهدوء، كما يعتقد البعض، بل إنها أحياناً تكون على العكس تماماً!! فهى أحياناً تكون رحلة في غابة مملوءة باللصوص، وأحياناً حرباً مستعرة مع إبليس وجنوده، وأحياناً أخرى صراعاً مع الذات الرديئة الساكنة فينا.

لو أردت أن تتفادى الحرب فما عليك إلا أن تدير ظهرك للمعركة وتقبل هذه الحياة المسيحية الفاترة الشائعة في أيامنا هذه، وعندئذ سيرفع إبليس الضغط عنك لأنه لا يحارب شخصاً فاتراً عاجزاً عن الحرب، **لكنى لا أتمنى لك هذا الوضع!!**



- ٣٦ -

"فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة" (أم ٤: ٢٣)

المقياس الحقيقى الذى ينبغى أن نمتحن به كل أعمالنا هو مدى نقاء الدافع الكامن وراءها، وكما أن الماء لا يمكن أن يرتفع أعلى من مستوى منبعه هكذا القيمة الروحية لأى عمل لا يمكن أن تكون أعظم من قيمة الدافع الذى أنتج هذا العمل.

لا يمكن أن ننتظر ثماراً صالحة من عمل ينبع من دافع شرير، حتى لو بدا ظاهرياً أنه عمل صالح يهدف للخير إلا أنه لابد أن يؤول في النهاية للشر. كل عمل ينتج من غضب أو حسد أو حقد، ومهما بدا مظهره تقوياً، لابد أن يؤول في النهاية لصالح مملكة إبليس!!

وللأسف فإن الكثير من الأعمال الدينية تتم بدوافع خاطئة مثل الغضب والغيرة وحب الظهور وحب المال.. إلخ، كل هذه الأعمال رغم مظهرها الحسن ستُحسب في الدينونة أعمالاً شريرة!! بل إن الله سيدين هذه الأعمال مرتين، مرة لأنها خاطئة في ذاتها بسبب الدافع الخاطىء الكامن وراءها، ومرة ثانية لأنها تتم باسم الله القدوس، وكم هو مخيف أن تكذب باسم الصادق الأمين، وأن تخطىء باسم القدوس الحق، وأن تكره وتؤذى في اسم الواحد الذى طبيعته هى الحب!!

خمير الفريسيين

حذَّر الرب تلاميذه من «خمير الفريسيين» الذى هو الرياء، وما هو الرياء؟ إنه الدوافع الرديئة عندما تختفى وراء أعمال تبدو صالحة، والفريسيون كانوا المثال الحى الواضح لهذا الرياء.

لم يرفض الله تديُّن الفريسيين بسبب أخطاء تعليمية، لا لأنهم متكاسلون أو فاترون، ولم تكن حياتهم الظاهرة فاسقة أو ماجنة، كل مشكلتهم كانت تكمن في قيمة الدافع وراء حياتهم المتدينة، كانوا يصلُّون، لكنهم يصلون لكى يمتدحهم الناس!! ولقد أفسد هذا الدافع الفاسد صلواتهم وحكم عليها ليس فقط بعدم الجدوى بل وبالإثم والرفض أيضاً.

كانوا يعطون بسخاء لخدمة الهيكل، لكنهم كانوا يفعلون هذا لكى يهربوا من واجبهم تجاه والديهم، ويا له من دافع ردىء!! كانوا يدينون الخطية بقسوة وصلابة عندما يجدونها في الآخرين، ولكنهم لم يعرفوا أن يدينوها بنفس الصلابة عندما وجدوها في قلوبهم!! هل تعرف لماذا؟ لأن هذه الدينونة لم تنبع من قلب صالح كاره للخطية بل من قلب متصلِّف شاعر ببره الذاتى، قلب يريد أن يدين الآخرين لكى يتبرر هو!!

بل نرى قمة الرياء، عندما صلبوا رب المجد حسداً وحقداً وهم يتظاهرون بأنهم يتممون الناموس!! إلى هذا الحد يمكن أن يعمى الإنسان عن دوافعه الداخلية!!

امتحن دوافعك

جميع المؤمنين - خصوصاً الخدام - ينبغى أن يخصصوا وقتاً باستمرار لكى يفحصوا دوافعهم أمام الله، كم من ترنيمة رُنمت حباً للظهور، وكم من عظة قُدمت إظهاراً للقدرات، وكم من أعمال «صالحة» قامت بها كنيستنا لكى تقاوم بها كنيسة الطائفة الأخرى!! حتى أعمال الكرازة وربح النفوس يمكن أن تتم بأهداف غير شريفة!! ولا تنس أن الفريسيين كانوا كارزين من الطراز الأول، يجوبون البر والبحر لكى يربحوا دخيلاً واحداً!!

خذ كتابك المقدس وادخل إلى مخدعك واغلق بابك، وعلى ركبتيك أمام الله افتح كتابك على (١كو ١٣) واقرأ كيف يستحضر الرسول أعظم الأعمال والمواهب ثم يجرِّدها من كل قيمة إذا لم يكن الدافع الكامن وراءها هو المحبة:

"إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لى محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن، وإن كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم وإن كان لى كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لى محبة فلست شيئاً!! وإن أطعمت كل أموالى وإن سلَّمت جسدى حتى أحترق ولكن ليس لى محبة فلا أنتفع شيئاً!!"

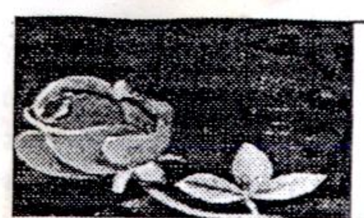
آه يارب، امتحن دوافعي!!

ولكى نلخص ما قلناه نقول ببساطة **إننا لا نُدان في نظر الله بحسب ما نفعله فقط بل أيضاً بحسب دوافعنا وراء ما نفعله، وعندما نقف أمام كرسى المسيح لنعطى حساباً عما كان بالجسد سيكون السؤال الأهم الذى يوجهه الرب لكل واحد منا ليس هو «ماذا فعلت؟» بل «لماذا فعلت؟»!!**

الوردة البيضاء

قصة حقيقية مترجمة

نهديها إلى كل أم في عيدها



كان الوقت صيفاً والمساء قد بدأ يرخى سدوله وكنت أسير على شاطىء التايمز في طريقى للكنيسة التى سأعظ بها هذا المساء، توقفت برهة وتمعنت في المياه الداكنة، وسَرَت في جسدى قشعريرة وأنا أسأل نفسى: كم قرناً من الزمان قد مرَّت على هذه المياه وهى مازالت تجرى في طريقها المحتوم ساخرة من أى زمان؟ بل كم من أحداث شاهدتها هذه المياه وتكتم أسرارها في جوفها المعتم؟! كم من أناس مروا في هذا الطريق قبلى ووقفوا يراقبون المياه مثلى؟ أين هم الآن؟ كم منهم ذهب إلى السماء وسألقاه يوماً وكم ذهب إلى الجحيم بدون رجعة؟! وفجأة أفقت من تأملاتى على حركة غريبة بجوارى، التفت فوقع نظرى على شبح فتاة في مقتبل العمر، كانت قد نهضت لتوها من على أحد المقاعد المنتشرة بمحازاة سور النهر، ورأيتها تتحرك بسرعة نحو السور وترفع قدمها فوق السور وتهم بأن تقفز فوقه، شىء ما في تصرفها جعل قلبى يدق بعنف، ووجدتنى أندفع نحوها صائحاً «معذرة يا أختى»!!

يبدو أن المفاجأة أزعجتها فالتفتت نحوى بعصبية ودهشة، وفي الضوء الخافت الآتى من مصابيح الشارع تبينت عينين هائجتين خائفتين مثل حيوان برى مذعور يبحث عن سبيل للهرب من الصياد، ملامح وجهها كانت تنم عن حزن عميق أكبر من سنها ويأس يناسب شخصاً لم يعد عنده أى أمل في الحياة، لم تنطق بحرف فقلت لها «اعذرينى أنى أتكلم معك رغم أنى غريب عنك، أنا واعظ وكنت في طريقى للخدمة فى الكنيسة التى في نهاية هذا الطريق، وفيما يبدو أنك تعانين من بعض المشاكل والاحباطات، ألا تودين أن تأتى معى إلى الاجتماع؟ هناك ستجدين شخصاً عظيماً يحب أن يكون صديقك الألزق من الأخ، إنه يستطيع أن يمنحك سلاماً في قلبك و...».

لكن رد فعلها لم يكن لطيفاً بالمرة، صاحت في وجهى «أنا لا أحب أن أذهب معك إلى أى مكان، وأنا لا أريد أى شىء من ديانتك كلها، اذهب عنى واتركنى وحدى» وهنا قفزت بغتة إلى ذهنى فكرة غريبة، كان مُضيفى قد أهدانى وردة بيضاء وكانت مازالت في جيبى، ووجدت يدى تتحرك بسرعة وتأخذ الوردة وتقدمها إلى الفتاة!! كنت مندهشاً من نفسى تماماً ولا أعرف بالضبط ماذا أفعل لكنى شعرت أن روح الله هو الذى يدفعنى لفعل هذا، ووجدتنى أقول لها بلطف «هل لك أن تقبلى هذه الوردة منى؟ سأتركها معكِ لتذكركِ بأن هناك في الكنيسة أصدقاء ينتظرونَكِ ليساعدوكِ إن أتيتِ».

ولدهشتى وجدتها تنتفض فجأة وتتراجع وهى تنظر إلى الوردة برعب، ثم بدأت تبكى وهى ترتجف من الانفعال، وعندئذ لم أجد ما أفعله أكثر فأكدت لها ترحيبنا بها ثم انصرفت في طريقى.

بعدما انتهيت من الخدمة وأثناء نزولى عن المنبر لمحت هذه الفتاة في مؤخرة الكنيسة منزوية في أحد الأركان، وبحركة انفعالية وجدتها تنهض من مكانها وتتقدم نحوى من وسط الصفوف، ثم بدأت تتكلم معى دون أن تبالى بنظرات الدهشة من الحاضرين، قالت «لقد استمعت لدعوتك للمجىء إلى الرب يسوع، وأنا أود أن آتى إليه، هل تعتقد أنه يمكن أن يقبل خاطئة مثلى؟» ثم أضافت بصوت متهدج «في هذا المساء كنت قد قررت أن أضع نهاية لحياتى في أعماق مياه التايمز لأنى لم أعد أستطيع مواصلة الحياة التى أعيشها منذ خمس سنوات مضت، لكنك ظهرت في اللحظة الحاسمة وتكلمت معى. وعندما صددتك بجفاء، أعطيتنى هذه الوردة البيضاء» وهنا بدأت الدموع تسيل بهدوء على وجنتيها واستطردت وهى تنظر إلى الوردة بتأثر «إنها تشبه الوردة التى أعطتنيها أمى منذ خمس سنوات» ثم رفعت عينين حزينتين نحوى وقالت «منذ خمس سنوات تركت منزل الأسرة لأعيش في الشر، ويوم تركت البيت ودعتنى أمى باكية وهى تقول لى: ها أنت تتركين أمك بمحض إرادتك لكى تخرجى إلى عالم خاطىء ولكى تعيشى في الخطيةَ، خذى هذه الوردة البيضاء معك يا ابنتى لكى تتذكرينى، وفي كل مرة تشاهدين فيها وردة بيضاء، وأنت في غربتك بعيدة عن هنا تذكَّرى أن لك أماً لن تكف ليلاً ونهاراً عن الصلاة لكى يرجعكِ الله إلى حضنها ابنة طاهرة مغسولة بالدم»!!

وأضافت وقد صار وجهها مغطى بالدموع «الوردة البيضاء التى أعطيتنيها يا سيدى في هذا المساء أرجعتنى إلى نفسى وأعادت إلى ذاكرتى صورة أمى التقية وكلامها الذى نسيته في غمرة شرورى الكثيرة، والآن هل تعتقد أن هناك أملاً لخاطئة مثلى؟».

كنت أستمع إليها وأنا لا أكاد أصدق ما أسمعه، ثم قرأت معها ـ وأنا أغالب تأثرى ـ الجزء الوارد في (إش ١:١٨) ولقد استمعت باهتمام ثم انفجرت في بكاء مر، لقد هزمتها محبة ربنا يسوع المسيح!!

لقد عادت هذه الفتاة إلى الله وإلى أمها وحياتها الآن تشهد عن نعمة ربنا المخلِّصة وأنا أعتقد جازماً أن صلوات أمها هى التى وضعتنى في طريقها في هذه اللحظات الحاسمة، فهذه الصلوات لا يمكن أن تضيع أبداً لأن المحبة لا تسقط أبداً.